▲ سورة الحشر

▲ تفسير الآيات رقم [1- 2]

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (2)}

لما ختمت المجادلة بأنه معز أهل طاعته، ومذل أهل معصيته ومحادته، علله بتنزهه عن النقائص تأييداً للوعد بنصرهم فقال: {سبح} أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص {لله} الذي أحاط بجميع صفات الكمال.

ولما كان الكفار من جميع بني آدم قد عبد بعضهم الشمس وبعضهم القمر وبعضهم غيرهما من الكواكب، وكانت الكواكب مبثوثة في السماوات كلها لا تخص سماء بعينها وكذا الملائكة، جمع دلالة على أن الكل عبيد فقال: {ما في السماوات} أي كلها. ولما كان الكلام في النهي عن موادة الذي يحادون الله، وكان ذلك لمن دون الخلص، أكد بإعادة النافي لاحتياجهم للتأكيد فقال: {وما} ولما كان جميع ما عبدوه ما أشركوا به من الأرضيات من شجر وصنم وبقر وغيرها لا يعد والأرض التي هم عليها، أفرد فقال: {في الأرض}.

ولما شمل هذا جميع العالم، أشار إلى أن عظمته لا تنتهي فقال: {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} الذي يغلب كل شيء ولا يمتنع عليه شيء {الحكيم *} الذي نفذ علمه في الظواهر والبواطن وأحاط بكل شـــيء فأتقن ما أراد، فكل ما خلقه جعله على وحدانيته دليلاً، وإلى بيان ما له من العزة والحكمة سبيلاً.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لا خفاء باتصـــال أيها بما تأخر من آي ســـورة المجادلة، ألا ترى أن قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضـب الله عليهم} إنما يراد به يهود فذكر سـبحانه سـوء سـريرتهم وعظيم جرأتهم ثم قال في آخر الســـورة {لا تجد قوماً يؤمنون بـالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورســوله} فحصـــل من هذا كله تنفير المؤمنين عنهم وإعلامهم بأن بغضـــهم من الإيمان وودهم من النفاق لقبيح ما انطووا عليه وشــنيع ما ارتكبوه، فلما أشــارت هذه الآي إلى ما ذكر أتبعت بالإعلام في أول ســورة الحشـــر بما عجل لهم من هوانهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم وتمكين المســـلمين منهم، جرياً على ما تقدم الإيماء إليه ســـوء مرتكبهم، والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناســبه، وتناســج الكلام، وافتتحت الســورة بالتنزيه لبنائها على ما أشـار إليه غضـبه تعالى عليهم إذ لا يكون إلا على أعظم جريمة وأسوأ مرتكب وهو اعتداؤهم وعصـيانهم المفصـل في مواضـع من الكتاب وقد قال تعالى فيهم بعد ذكر غضـــبه عليهم {أولئك شـــر مكاناً وأضـل عن سواء السبيل} [المائدة: 60] وقال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إســرائيل على لســان داود وعيســى ابن مريم ذلك بما عصــوا وكانوا

يعتدون} [المائدة: 78] فبين تعالى أن لعنته إياهم إنما ترتبت على عصيانهم واعتدائهم، وقد فصل اعتداءهم أيضاً في مواضع، فلما كان الغضب مشيراً إلى ما ذكر من عظيم الشرك، أتبعه سبحانه وتعالى تنزيه نفسه جل وتعالى فقال: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض} وإنما يرد مثله من التنزيه أثر جريمة تقع من العباد وعظيمة يرتكبونها وتأمل ذلك حيث وقع، ثم عاد الكلام إلى الإخبار بما فعل تعالى بأهل الكتاب مما يتصل بما تقدم، ثم تناسجت الآي- انتهى.

ولما نزه نفسه الأقدس دل على ذلك التنزه على العزة والحكمة بدليل شهودي من أنه أنفذ ما كتب من أنه يغلب هو ورسله ومن أنه كبت الذين حادوه وخيب ظن الذين نافقوا، فتولوا اليهود من أهل الكتاب ليعتزوا بهم، فأذل اليهود وطردهم من مهبط الوحي وأخزى المنافقين الذين جعلوهم محط اعتمادهم وموضع ولايتهم ووددادهم، فقال: {هو} أي وحده من غير إيجاف خيل ولا ركاب {الذي أخرج} على وجه القهر {الذين كفروا} أي ستروا ما في كتبهم من الشواهد التي تشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه النبي الخاتم وما في فطرهم الأولى من أن اتباع الحق أحق، وقبح عليهم كفرهم بقوله موضع {من بني النضير} أو {اليهود} مثلاً: {من أهل الكتاب} أي الذي أنزله الله على رسوله موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، وفي التعبير ب {كفروا} إشعار بأنهم الذين أزالوا بالتبديل أو الإخفاء ما قدروا عليه مما بقي من التوراة دالاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كان الوطن عديل الروح لأنه للبدن كالبدن للروح، فكان الخروج منه في غاية العسر، دل على مزيد قهرهم به بأن قال: {من ديارهم} ولما كان كان منهم من جلا من المدينة الشريفة إلى خيبر، وهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب ولحق سائرهم بأريحا من أرض الشام أرض المحشر، ولحق بعضهم بالحيرة، لوح إلى فتح خيبر وحشرهم منها حشراً ثانياً بقوله معللاً أو موقتاً: {لأول} أي لأجل أول أو عند أول {الحشر} وفي ذلك إشارة إلى أن كل بلد حشروا إليه سيفتح، ويزلزلون منه زلزلة أخرى، لا تزال مصائبهم بأهل الإسلام قائمة حتى يكون الحشر الأعظم بالقيامة، والحشر: الجمع من مكان والسوق إلى غيره بكره، وسمي أولاً لأنهم أول من أجلي من اليهود من جزيرة العرب، والحشر الثاني لهم من خيبر على زمن عمر رضي الله عنه، وعند ابن إسحاق أن إجلاءهم في مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من أحد وفتح قريظة في مرجعه من الأحزاب وبينهما سنتان، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «اخرجوا قالوا: إلى أين، قال: إلى أرض المحشر»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من شك أن المحشر بأرض الشام فليقرأ هذه الآية. انتهى، وهذا الحشر يدل على المحشر الأعظم وبينه على قوله صلى الله عليه وسلم:

»بعثت أنا والساعة كهاتين».

ولما كان قد أخبر أن حشرهم لم يكن بسبب غير محض قدرته، استأنف شرح ذلك بقوله: {ما ظننتم} أي أيها المؤمنون {أن يخرجوا} أي يوقعوا الخروج من شيء أورثتموه منهم لما كان لكم من الضعف ولهم من القوة

لكثرتهم وشـــدة بأســـهم وشـــكيمتهم وقرب بني قريظة منهم فكانوا بصـــدد مظـاهرتهم، وأهـل خيبر أيضـــــاً غير بعيـدين عنهم وكلهم أهـل ملتهم، والمنافقون من أنصـــارهم وأســـرتهم، فخابت ظنونهم في جميع ذلك وفالت أراؤهم وسلط عليهم المؤمنون على قلتهم وضعفهم، وإذا أراد الله نصر عبد استأسد أرنبه وإذا أراد قهر عدو استنوق أسده.

ولما كانت الحصون تمنع إلى إتيان الأمداد قال: {وظنوا أنهم} ودل على قوة ظنهم وثباته بالجملة الاسمية فقال: {مانعتهم حصونهم} أي ثابت لها المنع ولهم الامتناع، قالوا : وفي تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي جعل ضميرهم اسم (إن) وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفســـهم أنهم في عز ومنعة لا مطمع معها في معازّتهم، ودل على ضـــعف عقولهم بأن عبر عن جنده باســـمه وباســـمه الأعظم فقال: {من الله} أي الملك الأعظم الذي لا عز إلا له وأنتم جنده، لا تقاتلون إلا فيه وبه، بأسكم من بأسه، فقد اجتمع الظنان على شـيء واحد.

ولما كان إسناد ما للمضاف إلى المضاف إليه شائعاً في لسان العرب وكثيراً جداً لأنـه لا يلتبس على من لـه إلمام بكلامهم، وبليغاً جداً لما لـه من العظمة، قال : {فآتاهم الله} أي جاءهم الملك الأعظم الذي يحتملون مجيئه بما صـور لهم من حقارة أنفسـهم التي اضـطرتهم إلى الجلاء {من حيث لم يحتسـبوا} أي من الجهة التي لم يحملوا أنفســهم على حسـبها وهي خذلان المنافقين لهم رعباً كرعبهم واستضعافاً كاستضعاف أنفسهم عن مقاومة جند

الله بعد أن كان الشـــيطان زين لهم غير ذلك، وملأ قلوبهم من الأطماع الفارغة حتى قطعوا بما مناهم وقربه لهم وأغواهم.

ولما كان التقدير : فأوهنهم الله بذلك، عطف عليه قوله : {وقذف} أي أنزل إنزالاً كأنه قذفه بحجارة، فثبت وارتكز {في قلوبهم الرعب} أي الخوف الذي سكنها فرضّها وملأها وعبر منها إلى جميع قواهم فاجتثها من أصلها، ثم بين حالهم عند ذلك أو فسـر قذف الرعب بقوله : {يخربون بيوتهم} أي يبالغون– على قراءة أبي عمرو بالتشـديد– في إخرابها، أي إفسادها، فإن الخربة الفساد، وقراءة غيره يفهم الفعل المطلق الذي لا ينافي المقيد {بأيديهم} ضعفاً منهم– بما أشار إليه جمع القلة، ويأساً من قوتهم ليأخذوا ما استحسنوا من آلاتها، فكان الرجل منهم لما تحملوا للرحيل يهدم بيته عن نجاف بابه وما استحسن من خشبه فيضعه على ظهر بعيره فيأخذه وينقب الجدار ويهدم السقف حسداً للمسلمين أن يسكنوها بعدهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يخلوا له عن البلد ولهم ما حملت إبلهم.

ولما كان السبب في تخريب الصحابة رضي الله عنهم لبيوتهم ما أحرقوهم به من المكر والغدر كانوا كأنهم أمروهم بذلك، فنابوا عنهم فيه، فقال أيضاً بجمع القلة للدلالة على أن الفعل له سبحانه وحده: {وأيدي المؤمنين} أي الراسخين في الإيمان استيلاء وغلبة عليهم وقد كان المؤمنون يخربون ما ضيق عليهم المجال منها لأجل القتال، وقدم تخريبهم لأنه أعجب.

ولما كان في غاية الغرابة أن يفعل الإنسان في نفسه كما يفعل فيه عدوه، سبب عن ذلك قوله: {فاعتبروا} أي احملوا أنفسكم بالإمعان في التأمل في

عظيم قدرة الله تعالى على أن تعبروا من ظواهر العلم في هذه القضـــية بما دبر الله في إخراجهم إلى بواطن الحكمة بأن لا تعدوا لكم ناصـــراً نم الخلق ولا تعتمدوا على غير الله، فإن الاعتبار – كما قال القشـــيري – أحد قوانين الشـــرع، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره – انتهى. وقد احتج بالآية مثبتو القياس فإنه مجاوزة من الأصل إلى الفرع، والمجاوزة اعتبار، وهو مأمور به في هذه الآية فهو واجب.

ولما كان الاعتبار عظيم النفع، لا يحصـــل إلا للكمل، زاده تعظيماً بقوله تعالى: {يا أولي الأبصـار *} بالنظر بأبصـاركم وبصـائركم في غريب هذا الصـنع لتحققوا به ما وعدكم على لسـان رسـوله صـلى الله عليه وسـلم من إظهار دينه وإعزاز نبيه ولا تعتمدوا على غير الله كما اعتمد هؤلاء على المنافقين، فإن من اعتمد على مخلوق أسـلمه ذلك إلى صـغاره ومذلته، ولا تلموا بغدر كما أرادوا أن يغدروا برسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فيطرحوا عليه وهو قاعد بفناء دار من دورهم رحى من السـطح ليقتلوه بها – زعموا، ولا تفعلوا شيئاً من قبيح أفعالهم لئلا يحصل لكم مثل نكالهم كما أحكمه قوله صـلى الله عليه وسـلم «لتتبعن سـنن من كان قبلكم» الحديث، وذلك الغدر منهم بعد أن حرضـوا قريشـاً على غزوة أحد ودلوهم على بعض العورات، وقال البغوي: إن كعب بن الأشـرف أتى قريشـاً بعد أحد في أربعين راكباً فحالفهم على النبي صـلى الله عليه وسـلم فنزل جبريل عليه السـلام عليه يخبره بذلك، وقال: إنه لما قصـدهم عليه السـلام أرسـلوا إليه أن يخرج في ثلاثين ويخرج منهم ثلاثون ليسـمعوا منه، فإن آمنوا به آمن الكل، فأجابهم

فأرســـلوا أن الجمع كثير فاخرج في ثلاثة ليخرج ثلاثة منا، فأرســـلت امرأة منهم إلى أخيها وكان مسلماً أنهم اشتملوا على الخناجر يريدون الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم فكف صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وكل ما ذكر من أسباب قصتهم كما ترى دائر على المكر بل هو عين المكر.

▲ تفسير الآيات رقم [3- 5]

{وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (3) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (4) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُــولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (5)}

ولما دل هذا على غاية الوهن منهم فكان موضـــــع التعجب من الكف عن قتلهم، بين أن الســـبب في ذلك أمره الباهر وعزه القاهر حثاً على ما ختم به الآية السابقة من الاعتبار والتدبر والاستبصار فقال: {ولولا أن كتب الله} أي فرض فرضـــاً حتماً الملك الذي له الأمر كله، ودل على أنه كتب إذلالاً وإخزاء بقوله: {عليهم} أي بخصــوصــهم فيما كتب على بني إسـرائيل في الأزل كما كتب على بني قينقاع {الجلاء} أي الخروج من ديارهم والجولان في الأرض، فأما معظمهم فأجلاهم بخت نصـر من بلاد الشـام إلى العراق، وأما هؤلاء فحماهم الله بمهاجر رســول الله صــلى الله عليه وســلم من ذلك الجلاء وجعله على يدي رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، فأجلاهم فذهب بعضــهم إلى خيبر وبعضــهم إلى الشــام مرة بعد مرة {لعذبهم في الدنيا} أي بالسـيف كما سـيفعل بأحوالهم من بني قريظة الذين كتب عليهم العذاب دون

الجلاء من قتل المقاتلة وسبي الذرية، فإنه تعالى قد قضى قضاء حتماً أنه يطهر المدينة بلد الوحي منهم.

ولما كان التقدير : ولكنه كتب عليهم ذلك فهو عذابهم الآن في الدنيا لا محالة وإن اجتمع أهل الأرض على نصرهم، عطف عليه قوله على طريق التهكم بالتعبير بأداة النفع : {ولهم} أي على كل حال أجلوا أو تركوا {في الآخرة} التي هي دار البقاء {عذاب النار *} وهو العذاب الأكبر.

ولما أخبر بما نالهم في الدنيا وينالهم في الآخرة، علله بقوله : {ذلك} أي الأمر العظيم الذي فعله بهم من الجلاء ومقدماته في الدنيا ويفعله بهم في الآخرة {بأنهم} ولما كانوا قد ضموا فى هذه القضية إلى ما كانوا عليه من الكفر الظاهر كفراً باطناً بما أرادوا من إلقاء الرحى وغيره من الأذى مكراً منهم، أدغم في قوله: {شاقوا الله} أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة التامة، فكانوا في شق غير شقه بأن صاروا في شق الأعداء المحاربين بعد ما كانوا في شق الموادعين.

ولما جارى رسول الله صلى الله عليه وسلم إخفاءهم لما أرادوا أن يفعلوا به بالإخفاء لخلاصه منهم بأن رجع إلى المدينة الشريفة وترك أصحابه رضي الله عنهم عندهم قال: {ورسوله} الذي إجلاله من إجلاله. ولما أخبر بفعله وبسببه، عطف عليه تأكيداً لمضمونه وإفاده لأنه يفعل في غيرهم ممن كان على أمرهم أعظم من فعلهم فقال : {ومن يشاق الله} أي يوقع في الباطن مشاققة الملك الأعلى الذي لا كفوء له في الحال أو الماضي أو الاستقبال سواء أبطن معها مشاققة أخرى أو لا، وترك الإدغام على حاله لأنهم ما

أظهروا معاداة وإنما كان ما فعلوا مكراً ومســـاترة، وذلك أخف من المجاهرة، وأظهر في الأنفال لقوة أمر المجاهرين كما مضـــى، ولم يعد ذكر الرســـول تفخيماً له بإفهام أن مشـاقفته مشـاقفة لله من غير مثنوية أصـلاً، وإشـارة إلى أنهم بالغوا في إخفاء مشـاقفتهم، فلم يظهر عليها غير الله، فلم يحصـل منهم في ذلك مفاعلة بينهم وبين الرسول صـلى الله عليه وسلم فإنه لم يمكر بهم، وإنما جاهرهم حين أعلمه الله بمكرهم بخلاف ما تقدم في الأنفال، فإن المقام اقتضى هناك الذكر لأنهم مكروا به كما قال تعالى

{وإذ يمكر بك الذين كفروا} [الأنفال: 30] الآية وهو صـلى الله عليه وسـلم أخفى أمر هجرته وأعمل الحيلة في الخلاص من مكرهم على حسب ما أمره الله به فحصلت المفاعلة في تحيز كل من الفريقين إلى شق غير شق الآخرة خفية {فإن الله} أي المحيط بجميع العظمة يشدد عقابه له لأنه {شديد العقاب * } وذلك كما فعل ببني قريظـة بعد هذا حيث نقضـــوا عهدهم وأظهروا المشاقفة في غزوة الأحزاب وكما فعل أهل خيبر، وكانوا يماكرون ويساترون في الأولى عند فتحها وفي الثـانيـة عنـد إجلائهم منهـا، فقد ســـوى بين المســـاترين والمجاهرين في العذاب وهو للمجاهرين أشـــد عذاباً كما هو واضح.

ولما دل ســـبحانه على عزته وحكمته بما فعل ببني النضـــير الذين يقولون إنهم أشـجع الناس وأشـدهم شـكيمة بما لهم من الأصـالة والاصـطفاء على العالمين، مع التأييد بالكتاب والحكمة، وختم بأن من شاق رسوله فقد شـاقه، ومن شـــاقه فقد شـــدد عقابه، أتبعه بيان ما عاقبهم به من قطع الصـــحابة

رضـــي الله عنهم بأمر النبي صـــلى الله عليه وســـلم لنخلهم الذي هو أعز عليهم من أبكارهم وهم ينظرون إليه لا يغنون شـــيئاً ولا منعة لديهم فقال: {ما} وهي شـرطية وأتبعها بشـرطها الناصـب لها فقال: {قطعتم} أي كل ما قطعتموه، وبين ما في «ما» من الإبهام بقوله معبراً عن النخل، بما يفيد نوعه وأنه هان عليهم القطع ولان: {من لينة} وهي ضـرب من النخل، قال ابن إسـحاق: هو ما خالف العجوة من النخل، وقال ابن هشـام: اللينة من الألوان، وهي ما لم يكن برنية ولا عجوة من النخل فيما حدثني أبو عبيدة– انتهى. وقال صاحب القاموس اللون: الدقل من النخل، وهي جماعة واحدتها لونه ولينة، قال المهدوي: وروي عن ابن عباس رضـي الله عنهما أيضاً أنها لون من النخل، وقال البغوي: ورواية زاذان عن ابن عباس رضـــي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقطع نخلهم إلا العجوة. وأهل المدينة يســـمون ما خلا العجوة من التمر الألوان واحدها لون ولينة، وقال عطية والحسـن ومجاهد وابن زيد وعمرو بن ميمون: اللينة: النخلة، اسـمان بمعنى واحد، وجمعها لين وليان، وقال سـفيان الثوري: اللينة ما تمرها لون وهو نوع من التمر شـديد الصـفرة يشـف عن نواة فيرى من خارج، قال البغوي: يغيب فيها الضـــرس، وكان من أجود تمرهم وأعجبها إليهم، وكانت النخلة الواحدة ثمنها ثمن وصيف أحب إليهم من وصيف، فلما رأوهم يقطعونها شق عليهم وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسـدون، دعوا هذه النخلة، فإنما هي لمن غلب عليها، وقال الرازي في اللوامع واختلاف الألوان فيها ظاهر لأنها أول حالها بيضـاء كصـدف مليء درّاً منضـداً، ثم غبراء ثم خضـراء

كأنها قطع زبرجد خلق فيها الماء ثم حمراء كأنها ياقوت رص بعضه ببعض ثم صفراء كأنها شذو عقيان، ولذلك إذا بلغ الإرطاب نصفها سميت مجزعة لاختلاف ألوانها الجزع الظفاري.

ولما كان ما فسر بمؤنث هو اللينة، أعاد الضمير مؤنثاً فقال: {أو تركتموها} ولما كان الترك يصدق ببقائها مغروسة أو مقطوعة قال: {قائمة} ولما كان المراد نخيلاً كثيرة لإرادة الجنس قال: {على أصولها} بجمع الكثرة {فبإذن الله} أي فقطعها بتمكين الملك الأعظم ورضاه، قال القشيري: وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة وإذا جاء الأمر الشرعي بطل طلب التعليل وسكتت الألسنة عن التقاضي ب «لِمَ» وحضور الاعتراض والاستقباح بالبال خروج عن حد العرفان.

ولما فطم عن طلب العلل خطاباً للكمل، طيب قلوب من دونهم بعلة معطوفة على ما تقديره: فليس ذلك بفساد ولكنه صلاح أذن لكم فيه ليشفي به صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم، فقال واضعاً موضع ضميرهم ظاهراً يدل على ما أوجب خزيهم: {وليخزي الفاسقين* } الذين هم أصلاء في المروق من دائرة الحق بأن يذلهم ويفضحهم ببيان كذبهم في دعواهم العز والشجاعة والتأييد من الله لأنهم على الدين الحق وأنه لا يتطرق إليه نسخ، وروى أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه أنه قال: رخص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا فيما تركنا، فأنزل الله الآية– انتهى وكان ناس من المؤمنين مالوا إلى الكف عن القطع لما سموه اليهود فساداً وطائفة

أشاروا بالاستمرار على القطع لأنه يغيظهم، فصوب سبحانه في الآية من أمر بالكف وحلل من أشاروا بالاستمرار بالقطع من الإثم، فدلت الآية على جواز إفساد أموال أهل الحرب على أي حال كان مثمراً كان أو لا بالتحريق والتغريق والهدم وغيره لإخزائهم بذلك.

▲ تفسير الآية رقم [6]

{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)}

ولما كانت الغنائم التي تقسم بين الجيش إنما هي ما قاتلوا عليه، وأما ما أتى منها بغير قتال فهو فيء يأخذه الإمام فيقسمه خمسة أخماس، ثم يقسم خمساً منها خمسة أقسام، أحدها وهو كان للنبي صلى الله عليه وسلم يكون بعده لمصالح المسلمين، والأقسام الأربعة الأخرى من هذا الخمس لمن ذكر في الآية بعدها، والأربعة الأخماس الكائنة من أصل القسمة وهي التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها حصلت بكفايته وإرعابه للعدو، تفرق بين المرتزقة من جميع النواحي، فكانت الأموال كلها لله إنعاماً على من يعبده بما شرعه على ألسنه رسله عليهم الصلاة والسلام، كانت أموال الكفار في أيديهم غصباً غصبوه من أوليائه، فخص سبحانه رسول صلى الله عليه وسلم بأموال بني النضير يضعها حيث يشاء لأنها فيء فقال: {وما أفاء الله} أي رد الملك الذي له الأمر كله رداً سهلاً بعد أن كان فيما يظهر في غاية العسر والصعوبة {على رسوله} فصيره في يده بعد أن كان خروجه عنها بوضع أيدي الكفار عليه ظلماً وعدواناً كما دل عليه التعبير بالفيء الذي

هو عود الظل إلى الناحية التي كان ابتدأ منها {منهم} أي رداً مبتدئاً من الفاســـقين، فبين أن هذا فيء لا غنيمة، ويدخل في الفيء أموال من مات منهم عن غير وارث وكذا الجزية، وأما الغنيمة فهي ما كان بقتال وإيجاف خيل وركاب.

ولما كان الحرب إنما هو كر وفر في إسراع وخفة ورشاقة بمخاتلة الفرسان ومراوغة الشـــجعان ومغاورة أهل الضــــرب والطعان، قال معللاً لكونه فيئاً: {فما أوجفتم} أي أســـرعتم، وقال ابن إســـحاق: حركتم واتبعتم في الســـير– انتهى، وذلك الإيجاف للغلبة {عليه} وأعرق في النفي بالجار فقال: {من خيل} وأكد بإعادة النافي لظن من ظن أنه غنيمة لإحاطتهم بهم فقال: {ولا ركاب} أي إبل، غلب ذلك عليها نم بين المركوبات، ولا قطعتم من أجله مســافة، فلم تحصــل لكم كبير مشــقة في حوز أموالهم لأن قريتهم كانت في حكم المدينة الشــريفة ليس بينها وبين ما يلي منها مســافة بل هي ملاصــقة لإحدى قرى الأنصـــار التي المدينة اســـم لها كلها، وهي قرية بني عمرو بن عوف في قباء بينهما وبين القرية التي كان رســـول الله نازلاً بها نحو ميلين، فمشــى الكل مشــياً ولم يركب إلا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ولم يقاتلوا بها قتالاً بعد، فلذلك جعلها الله فيئاً ولم يجعلها غنيمة، فهي تقســـم قســـمة الفيء، لا قســـمة الغنيمة، فخمســـها لأهل خمس الغنيمة وهم الأصـــناف الخمســة المذكورون في الآية التي بعدها، وما فضــل فهو الأربعة الأخماس له صلى الله عليه وسلم مضمومة إلى ما حازه من خمس الخمس.

ولما كان معنى هذا: فما كان التسليط بكم، استدرك بقوله: {ولكن الله} أي الذي له العز كله فلا كفوء له {يسلط رسله} أي له هذه السنة في كل زمن {على من يشاء} بجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رعباً في قلوب أعدائه، فهو الذي سلط رسوله صلى الله عليه وسلم على هؤلاء بأن ألقى في روعه الشـــريف أن يذهب إليهم فيســـألهم الإعانة في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري رضـي الله عنه خطأ، فلما جلس رسول الله صلى الله عليه وســـلم إلى جانب بيت من بيوتهم، وكانوا موادعين له صـــلى الله عليه وسلم نقضـوا عهدهم خفية مكراً منهم بعد أن رحبوا به ووعدوه الإعانة وأمروا أحدهم أن يرمي عليه من فوق السطح صخرة لتقتله، فأعلمه الله بهذا فذهب وترك أصـــحابه هناك حتى لحقوا به، وهذا بعد ما كان حيي فعل من قدومه مكة وندبه لقريش إلى حرب النبي صلى الله عليه وسلم ومعاقدته لهم على أن يكون معهم عليه عليه الصلاة والسلام، وإعلام الله بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم بعد ما أصبح أنكم قد خنتم الله ورسوله، فأردتم أن تفعلوا كذا، وأن الأرض لله ورســـوله، فاخرجوا منها وقد أجلتكم عشـــراً، فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون ودس إليهم ابن أبي ومن معه من المنافقين أنهم معهم في الشـــدة والرخاء لا يســـلمونهم، وقال ابن أبي: معي ألفان من قومي وغيرهم نم العرب يدخلون حصنكم فيموتون من عند آخرهم، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان فطمع حيي بن أخطب في ذلك فأرســـل إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فقصدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المؤمنين يحمل رايته علي بن أبي طالب رضـي الله عنه فصلى

العصر بفنائهم بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه وأقام عليهم ست ليال وهم متحصنون، فقطع من نخلهم وحرق فنادوه أن قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بالك تقطع النخل، وتربصوا نصر ابن أبي ومن معه على ما قالوا فلم يفوا لهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم فأرسلوا بالإجابة، فقال: لا إلا أن يكون لي سلاحكم وما لم تقدروا على حمله على إبلكم من أموالكم، فتوقفوا ثم أجابوا فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل إلا الحلقة، وذهبوا على ستمائة بعير، وأظهروا الحلي والحلل وأبدى نساؤهم زينتهن فلحق بعضهم بخيبر وبعضهم بالشام وخلوا الأموال والحلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسلم منهم إلا رجلان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها فجعل الله أموال من لم يسلم منهم فيئاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة به يضعها حيث يشاء كما روي ذلك في الصحيح عن عمر رضي الله عنه في قصة مخاصمة علي والعباس رضي الله عنهما، وفيه أنه من خصائصه صلى الله عليه وسلم فإنه قال: إن الله قد خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ {ما أفاء الله على رسوله منهم} إلى قوله تعالى: {قدير} فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم قد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال- يعني الذي وقع خصامهما فيه، فكان ينفق رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل ما لله، وفي الصحيح أيضاً عن مالك بن أوس

بن الحدثان عن عمر رضـــي الله عنه قال: كانت أموال بني النضـــير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خاصـة ينفق على أهله منها نفقة سـنة ثم يجعل ما بقي في السـلاح والكراع عدة في سـبيل الله- انتهى، وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم بعد ما تركه لنفسه بين المهاجرين، لم يعط الأنصــار منه شـيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة شديدة: أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة رضـــي الله عنهم، وكان لسـيف ابن أبي الحقيق عندهم ذكر فنفله سـعد بن معاذ رضي الله عنه وقال الأصبهاني: إن الفيء كان يقسم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة وعشرين سهماً أربعة أخماسها وهي عشرون سهماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل بها ما يشاء ويحكم فيها ما أراد، والخمس الباقي على ما يقسم عليه خمس الغنيمة- يعني على رسول الله صلى الله عليه وسلم وذوي القربى ومن بعدهم، هكذا كان عمله صلى الله عليه وسلم في صفاياه، فلما توفي كانت إلى إمام المسلمين وكذا جميع ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه قال:

»لا نورث، ما تركناه صـدقة«. فولي ذلك أبو بكر رضـــي الله عنه ثم عمر رضـي الله عنه، فكانا يفعلان فيها ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقال الأصبهاني رضي الله عنه أيضاً عن مالك بن أوس بن الحدثان رضي الله عنه: قرأ عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه {إنما الصـــدقات للفقراء}

[التوبة: 60] حتى بلغ {عليم حكيم} ثم قال: هذه لهؤلاء ثم قرأ {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه}

[الأنفال: 41] ثم قال هذه لهؤلاء، ثم قرأ {ما أفاء الله على رسـوله من أهل القرى} [الحشر: 7] حتى بلغ {الفقراء المهاجرين والذين تبوءوا الدار والإيمان والذين جاؤوا من بعدهم} [الحشر: 7] ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة فليس أحد إلا له فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي نصيبه منه لم يعرف جبينه فيه- انتهى.

وقال ابن عطية: ما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم لبني النضير ومن فدك فهو خاص بالنبي صـــلى الله عليه وســـلم، وليس على حكم الغنيمة التي يوجف عليها ويقاتل فيها، ومذهب الشـافعي رضـي الله عنه أن هذه الأموال التي هي فيء كبقية الفيء يقسم على خمسة أسهم: خمس منها للأصـناف المذكورة أولها النبي صلى الله عليه وسلم وأربعة أخماسها له صلى الله عليه وسـلم وحده، وأجاب الشـافعي عن قول عمر رضـي الله عنه، «فكانت هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة» بأنه عام أريد به الخاص، ومعناه، فكان ما بقي منها في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعطاء الخمس لأربابه خاصاً به صلى الله عليه وسلم، لا يشك أحد في خصوصيته به، ثم إنه مع ذلك ما احتازه دونهم بل كان يفعل ما ذكر في الحديث من الإيثار، قال الشـافعي رضـي الله عنه: لأنا لا نشـك أن النبي صـلى الله عليه وسـلم أعطى الأصــــناف المذكورين في الآية منها حقهم وقد عهدنا أن حق هؤلاء الأصـناف من مال المشـركين الخمس كما هو صـريح في سـورة الأنفال،

واســتفيد من قول عمر رضـــي الله عنه «إنها كانت للنبي صـــلى الله عليه وسـلم» أنه كان له ما كان يشـترك فيه المسـلمون من الخمس من الغنيمة التي حصـلت بما حصـل للكفار من الرعب منهم، والذي كان يشـترك فيه المسلمون بعد الخمس هو أربعة الأخماس والنبي صـلى الله عليه وسـلم قام مقام المسـلمين فيه إذ هم لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، وإنما حصـل ذلك بالرعب الذي ألقاه الله لرسـوله صـلى الله عليه وسـلم في قلوب المشـركين، فكانت الأربعة الأخماس تختص ممن كان السـبب في حصـول الجميع كما في الغنيمة، فعلى هذا الفيء الغنيمة لا يختلفان في أن الأربعة الأخماس تختص لمن كان الســـبب في حصـــول الجميع وأن خمس المالين يكون للأصـــناف المذكورة، والذي كان له صـــلى الله عليه وســـلم من الفيء من الأربعة الأخماس يكون بعد موته صـلى الله عليه وسلم للمقاتلة لأنه حصـل بالرعب الحاصل للكفار منهم كأربعة أخماس الغنيمة التي حصلت بقتالهم.

ولما كانت قدرته سـبحانه عامة بالتسـليط وغيره، أظهر ولم يضـمر فقال: {والله} أي الملك الذي له الكمال كله {على كل شـيء} أي أي شـيء يصـح أن تتعلق المشـيئة به وهو كل ممكن من التسـليط وغيره {قدير *} أي بالغ القدرة إلى أقصى الغايات، والآية تدل على أن إيجاف الخيل والركاب وقصد العدو إلى الأماكن الشاسعة له وقع كبير في النفوس ورعب عظيم.

▲ تفسير الآية رقم [7]

{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَــــاكِينِ وَابْنِ السَّـــبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)}

ولما نزع ســـبحانه أموالهم من أيدي الجيش، بين مصـــرف غيرها مما كان مثلها بأن فتح له صـلى الله عليه وسـلم بغير قتال فقال مسـتأنفاً جواباً لمن كأنه قال: هل يعم هذا الحكم كل فيء يكون بعد بني النضير: {ما أفاء الله} أي الذي اختص بالعزة والحكمة والقدرة {على رســوله} ولما كان ســبحانه محيط العلم بأنه يسلط على أهل وادي القرى وغيرهم أعظم من هذا التسليط، قال ليكون علماً من أعلام النبوة: {من أهل القرى} أي قرية بني النضـــير وغيرها من وادي القرى والصــــفراء وينبع وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عربية {فالله} أي الملك الأعلى الذي الأمر كله بيده {وللرسول} لأنه أعظم خلقه، فرتبته تلي رتبته، وهذان يتراءى أنهما قسمان وليس كذلك، هما قسم واحد، ولكنه ذكر سبحانه نفسه المقدس تبركاً، فإن كل أمر لا يبدأ به فهو أجذم، وتعظيماً لرسوله صلى الله عليه وسلم إعلاماً بأنه لا هوى له أصــلاً في شــيء من الدنيا، وإنما رضــاه رضــا مولاه، خلقه القرآن الذي هو صـفة الله فهو مظهره ومجلاه، وسـهمه صـلى الله عليه وسـلم يصـرف بعده لمصالح المسلمين كالسلاح والثغور والعلماء والقضاة والأئمة.

ولما أبان هذا الكلام لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من الفضـل والعظمة ما لا يدخل تحت الوصــف، أتبعه تعظيماً آخر بتعظيم أقاربه لأجله، ولذلك أعاد العامل فقال: {ولذي القربى} أي منه لأن رتبتهم من بعد رتبته وهم بنو

هاشـم وبنو المطلب رهط إمامنا الشـافعي رضـي الله عنه سـواء فيه غنيهم وفقيرهم، لأن أخذهم لذلك بالقرابة لا بالحاجة كما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولما ذكر أهل الشرف، أتبعه أهل الضعف جبراً لوهنهم فقال مقدماً أضـــعفهم: {واليتامى} أي الذين هم أحق الناس بالعطف لأن مبنى الدين على التخلق بأخلاق الله التي من أجلّها تقوية الضعيف وجبر الكسير {والمساكين} فإنهم في الضعف على أثرهم ودخل فيهم الفقراء فإنه إذا انفرد لفظ الفقير أو المســـاكين دخل كل منهما في الآخر، وإنما يفرق إذا جمع بينهما، وكذا الفيء والغنيمة إذا أفردا جاز أن يدخل كل في الآخر، وإذا جمعا فالفيء ما حصل بغير قتال وإيجاف خيل وركاب، والغنيمة ما حصل بذلك {وابن السبيل} وهم الغرباء لانقطاعهم عن أوطانهم وعشائرهم، وقسمة الفيء على هذه الأصناف كما مضى أن يقسم خمسة أقسام: خمس منها لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ومن ذكر معه من المخلوقين وذكر الله فيهم للتبرك، لأن الأصناف المذكورة هي التي يعبر عنها باسـمه سـبحانه، والأربعة الأخماس خاصة له صلى الله عليه وسلم ينفق منها نفقة سنة وما فضل عنه أنفقه في مصالح المسلمين السلاح والكراع ونحوه، وما كان له صلى الله عليه وسلم في حياته فهو للمصالح بعد وفاته، كما كان يفعل بعد ما يفضل عن حاجته، قال الشافعي رضـي الله عنه في الأم: وما أخذ من مشـرك بوجه من الوجوه غير ضـيافة من مر بهم من المسـلمين فهو على وجهين لا يخرج منهما، كلاهما مبين في كتاب الله تعالى وعلى سنة رسوله

صــلى الله عليه وســلم وفي فعله فأحدهما الغنيمة، قال الله تعالى في ســورة الأنفال:

{واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول} [الأنفال: 41] والوجه الثاني الفيء، وهو مقســوم في كتاب الله في ســورة الحشــر، قال الله تبارك وتعالى: {وما أفاء الله على رسـوله منهم}- إلى قوله- {رؤف رحيم} فهذان المالان اللذان خولهما الله من جعلهما له من أهل دينه، وهذه أموال يقوم بها الولاة لا يســعهم تركها. فالغنيمة والفيء تجتمعان في أن فيهما معاً الخمس من جميعهما لمن ســماه الله تعالى، ومن ســماه الله تعالى في الآيتين معاً سـواء مجتمعين غير مفترقين، ثم يفترق الحكم في الأربعة الأخماس بما بين الله عز وجل على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وفي فعله فإنه قسم أربعة أخماس الغنيمة، والغنيمة هي الموجف عليها بالخيل والركاب لمن حضــر من غني وفقير، والفيء وهو ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت سنة النبي صــلى الله عليه وســلم في قرى عرينة التي أفاءها الله عليها أن أربعة أخماسـها لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خاصـة دون المسـلمين يضـعه رسوله الله صلى الله عليه وسلم حيث أراه الله عز وجل، ثم ذكر حديث عمر رضــي الله عنه من رواية مالك بن أوس بن الحدثان رضــي الله عنه في خصـام علي والعباس رضـي الله عنهما، قال الشـافعي: فأموال بني النضـير التي أفاء الله على رسـوله صـلى الله عليه وسـلم التي ذكر عمر رضـي الله عنه فيها ما بقي منها في يد النبي صــلى الله عليه وســلم بعد الخمس وبعد أشــياء فرقها النبي صــلى الله عليه وســلم منها بين رجال من المهاجرين لم

يعط منها أنصـــارياً إلا رجلين ذكرا فقراً وهذا مبين في موضـــعه، وفي هذا الحديث دلالة على أن عمر رضي الله عنه إنما حكى أن أبا بكر رضي الله عنه وهو أمضيا ما بقي من هذه الأموال التي كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه ما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به فيها، وأنهما لم يكن لهما مما لم يوجف عليه المسلمون من الفيء ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهما إنما كانا فيه أسوة للمسلمين، وذلك سيرتهما وســـيرة من بعدهما، والأمر الذي لم يختلف فيه أحد من أهل العلم عندنا علمته ولم يزل يحفظ من قولهم أنه ليس لأحد ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من صفي الغنيمة ولا من أربعة أخماس ما لم يوجف عليه منها، وقد مضـى من كان ينفق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه وغيرهن إن كان معهن، فلم أعلم أحداً من أهل العلم قال لورثتهم تلك النفقة التي كانت لهم، ولا خلاف أن تجعل تلك النفقات حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل فضول غلات تلك الأموال فيما فيه صلاح الإسلام وأهله، قال الشـافعي: والجزية من الفيء وسـبيلها سـبيل جميع ما أخذه مما أوجف من مال مشــرك أن يخمس فيكون لمن ســمى الله عز وجل الخمس وأربعة أخماسـه على ما سـأبينه إن شـاء الله تعالى، وكذلك كل ما أخذ من مشـرك من مال غير إيجاف، وذلك مثل ما أخذ منه إذا اختلف في بلاد المســلمين ومثل ما أخذ منه إذا مات ولا وارث له، وغير ذلك ما أخذ من ماله، وقد كان في زمن النبي صــلى الله عليه وســلم فيء من غير قرى عرينة، وذلك

مثل جزية أهل البحرين وهجر وغير ذلك فكان له أربعة أخماسها يمضيها حيث أراد الله عز وجل وأوفى خمسه من جعله الله له– انتهى.

ولما حكم سبحانه هذا الحكم في الفيء المخالف لما كانوا عليه في الجاهلية من اختصاص الأغنياء به، بين علته المظهرة لعظمته سبحانه وحسن تدبيره ورحمته فقال معلقاً بما علق به الجار: {كي لا يكون} أي الفيء الذي سيره الله سبحانه بقوته وما خص به نبيه صلى الله عليه وسلم من قذف الرعب في قلوب أعدائه ومن حقه أن يعطاه الفقراء {دولة} أي شيئاً يتناوله أهل الغنى والشرف على وجه القهر والغلبة إثرة جاهلية– هذا على قراءة الجماعة، وقرأ أبو جعفر وهشام عن ابن عامر بالتأنيث من {كان} التامة و {دولة} بالرفع على أنها فاعل {بين الأغنياء منكم} يتداولونه بينهم فإنهم كانوا يقولون: من عزيز، ومنه قال الحسن: اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً– يريد من غلب منهم أخذه واستأثر به، وقيل: الضم اسم للمتداول كالغرفة اسم لما يغترف، والفتح التداول.

ولما كان التقدير: فافعلوا ما أمرتكم من قسمته لمن أمرت به، عطف عليه قوله: {وما} أي وكل شيء {آتاكم} أي أحضر إليكم وأمكنكم منه {الرسول} أي الكامل في الرسلية من هذا وغيره {فخذوه} أي فتقبلوه تقبل من حازه {وما نهاكم عنه} من جميع الأشياء {فانتهوا} لأنه لا ينطق عن الهوى ولا يقول ولا يفعل إلا ما أمره به الله ربه، فمن قبل ذلك هانت عليه الأمور كما ورد (القرآن صعب مستصعب على من تركه ميسر على من طلبه وتبعه) روي أن الآية نزلت في ناس من الأنصار قالوا: لنا من هذه القرى سهمنا.

ولما كان الكف عما ألفته النفوس صــعباً، ولا ســيما ما كان مع كونه تمتعاً بمال على وجه الرئاسة، رهب من المخالفة فيه بقوله: {واتقوا الله} أي اجعلوا لكم بطاعة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وقاية من عذاب الملك الأعظم المحيط علماً وقدرة، وعلل ذلك بقوله، معظماً له بإعادة الجلالة مؤكداً لأن فعل المخالف فعل المنكر: {إن الله} أي الذي له وحده الجلال والإكرام على الإطلاق {شديد العقاب *} أي العذاب الواقع بعد الذنب، ومن زعم أن شيئاً مما في هذه السورة نسخ بشيء مما في سورة الأنفال فقد أخطأ، لأن الأنفال نزلت في بدر وهي قبل هذه بمدة.

▲ تفسير الآيات رقم [8- 9]

{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْــلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُـــــدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)}

ولما نزع سـبحانه أموال الفيء وما كانت عليه في الجاهلية، وبين مصــرف الفيء من القرى، وتهدد في المخالفة في ذلك لصــعوبته على النفوس، فكان ذلك جديراً بالتقبل بعد أن أفهم أن أموال بني النضير لمن سلطه عليهم وهو رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وكان من المعلوم من حاله صـلى الله عليه وسـلم الإيثار على نفســه والقناعة بما دون الكفاف، بين المصــرف فيها بعد كفايته صـــلى الله عليه وســـلم لأن بيان ذلك هو المقصـــود الأعظم لكونه

حاصلاً حاضراً، الموطأ له بأموال أهل القرى، فقال مبدلاً من {لله وللرسول} وما عطف عليهما لأن من أعطى المهاجرين لهجرتهم وتجردهم من أموالهم وديارهم فإنما أعطاهم لوجه الله ووجه رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يكون بدلاً من {ذي القربى} لئلا يختص بفقيرهم، أو يكون جواباً لمن كأنه قال: قد سمعنا وأطعنا فلمن يكون ما سلط الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من أموالهم؟ فقيل له: {للفقراء} أي الذي كان الإنسان منهم يعصب الحجر على بطنه من الجوع ويتخذ الحفرة في الشتاء لتقيه البرد، ما له دثار غيرها بعد أن كان له من الأموال ما يسعه ويفضل منه ما يصل به غيره، وإنما وصفهم بالفقر لأنهم كانوا عند نزولها كذلك، ثم خصص بالوصف فقال: {المهاجرين} ولما كانت الهجرة قد تطلق على من هجر أهل الكفر من غير مفارقة الوطن فقال: {الذين أخرجوا} وبناه للمفعول لأن المنكئ الإخراج، لا كونه من مخرج معين {من ديارهم} ولما كان الإخراج هنا مضمناً معنى المنع، واختبر التعبير به إشارة إلى أن المال الستزة للإنسان لأنه ظرف له، قال: {وأموالهم}.

ولما كان غلب الدنيا من النقائص، بين أنه إذا كان من الله لم يكن كذلك، وأنه لا يكون قادحاً في الإخلاص، وأن أمر بني النضير إنما يسر تحقيقاً لرجائهم فقال: {يبتغون} أي أخرجوا حال كونهم يطلبون على وجه الاجتهاد. وبين أنه لا يجب عليه شيء لأحد بقوله تعالى: {فضلاً من الله} أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له لأنه المختص بجميع صفات الكمال من الدنيا والدين والآخرة فيغنيهم بفضله عمن سواه {ورضواناً} يوفقهم لما يرضيه عنهم

ولا يجعل رغبتهم في العوض منه قادحاً في الإخلاص فيوصـــــلهم إلى دار كرامته.

ولما وصـفهم بتعليق بواطنهم به سـبحانه وقطعها بالرضـا بالإخراج عمن أو عما سـواه، وصـفهم ببذل ظواهرهم له فقال: {وينصـرون} أي على سـبيل التجديد في كل وقت والاسـتمرار {الله} أي الملك الأعظم المجيد {ورسـوله} الذي عظمته من عظمته بأنفسـهم وأموالهم ليضـمحل حزب الشـيطان. ولما بان ما له بهم سـبحانه من العناية ترقب السـامع من مدحهم ما يليق بهذا الإحبار.

فقال مسـتأنفاً ما هو كالعلة لتخصـيصـهم: {أولئك} أي العالو الرتبة في الأخلاق الفاضـلة {هم} أي خاصـة لا غيرهم {الصـادقون} العريقون في هذا الوصـف لأن مهاجرتهم لما ذكر وتركهم لما وصـف دل على كمال صـدقهم فيما ادعوه من الإيمان بالله ورسـوله صـلى الله عليه وسـلم حيث نابذوا من عاداهما وهو القريب الصـافي نسباً وداراً وأولوا أولياءهما من كانوا وإن بعدت دارهم وشـط مزارهم، وهذا يدل على أن مبنى الدين على إقامة البينات بـالثبـات عن الابتلاءات على أن العون قد يـأتي على قدر البلاء لأن الله تعالى قد خص المهاجرين مما أذن فيه من أموال بني النضير.

ولما مدح المهاجرين وأعطاهم فطابت نفوس الأنصـار بذلك وكانوا في كل حال معه صـلى الله عليه وسـلم كالميت بين يدي الغاسـل، مهما شـاء فعل، ومهما أراد منهم صـار إليه ووصـل، أتبعه مدحهم جبراً لهم وشكراً لصنيعهم فقال عاطفاً على مجموع القصـة: {والذين تبوؤ} أي جعلوا بغاية جهدهم

{الدار } الكاملة في الدور وهي التي أعدها الله في الأزل للهجرة وهيأها للنصـــرة وجعلها دائرة على جميع البلدان محيطة بها غالبة عليها محل إقامتهم وملابســتهم وصـــحبتهم وملازمتهم لكونها أهلاً لأن يعود إليها من خرج منها فلا يهجرها أصــلاً، فهي محل مناه وليســت موضــعاً يهاجر منه لبركتها أو خيرها.

ولما كان المراد الإبلاغ في مدحهم، قال مضـــمناً «تبوؤا» معنى لازم: {والإيمان} أي ولابسوه وصحبوه وخصوه بالصحبة ولزموه لزوماً هو كلزوم المنزل الذي لا غنى لنازله عنه، ويجوز أن يكون الإيمان وصـــفاً للدار بإعادة العاطف للإشـارة إلى التمكن في كل من الوصـفين فيكون كأنه قيل: تبوؤا المدينة التي هي الدار وهي الإيمان لأنها محل تمكن الإيمان وانتشـاره وظهوره في سـائر البلدان فلشـدة ملابسـتها له سـميت به، ويجوز أن يكون المعنى: ومحل الإيمان إشارة إلى أنهم ما أقاموا بها لأجل أن أموالهم بها بل محبة في الإيمان علماً منهم بأنه لا يتم بدره، ويكمل شـــرفه وقدره، وتنتشـــر أعلامه ويقوى ذكره إلا بها، ولولا ذلك لهجروها وهاجروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أي مكان حله، فهو مدح لهم بأنه متصفون بالهجرة بالقوة مع اتصافهم بالنصرة بالفعل.

ولما كان انفرادهم بإقامة الإيمان في الدار المذكورة قبل قدوم المهاجرين عليهم مدحاً تاماً، قال مادحاً لهم بذلك دالاً بإثبات الجارّ على أنهم لم يستغرقوا زمان القبل من حين إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بالأمرين: {من قبلهم} أي قبل هجرة المهاجرين لأن وصـــفهم بالهجرة لم يكن إلا بعد

إيجادها فالأنصـــار جمعوا التمكن في الإيمان إلى التمكن في الدار من قبل أن يجمع المهاجرون بينهما بالهجرة.

ولما ابتدأ ذكرهم هذا الابتداء الجليل، أخبر عنهم بقوله: {يحبون} أي على سبيل التجديد والاستمرار، وقيل العطف على المهاجرين، وهذه حال فيكون هذا حكماً بالمشـــاركة {من هاجر} وزادهم محبة فيهم وعطفاً عليهم بقوله: {إليهم} لأن القصـد إلى الإنسـان يوجب حقه عليه لأنه لولا كمال محبته له ما خصـــه بالقصـــد إليه، والدليل الشـــهودي على ما أخبر الله عنهم به من المحبة أنهم شـاطروا المهاجرين في أموالهم وعرضـوا عليهم أن يشـاطروهم نساءهم على شدة غيرتهم، فأبى المهاجرون المشاطرة في النساء وقبلوا منهم الأموال.

ولما أخبرهم بالمحبة ورغبهم في إدامتها، عطف على هذا الخبر ما هو من ثمراته فقال: {ولا يجدون} أي أصـلاً {في صـدورهم} التي هي مساكن قلوبهم فتصـــدر منها أوامر القلوب فضـــلاً عن أن تنطق ألســـنتهم. ولما كان المراد نفي الطلب منهم لما خص به المهاجري، وكان الحامل على طلب ذلك الحاجة، وكان كل أحد يكره أن ينسـب إلى الحاجة وإن أخبر بها عن نفســه في وقت ما لغرض قال: {حاجة} موقعاً اسـم السـبب على المسـبب {مما أوتوا} أي المهاجرون من الفيء وغيره من أموال بني النضـــير وغيرهم من أي مؤت كان فكيف إذا كان المؤتي هو الله ورسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وإذا لم يجدوا حاجة تدعوهم إلى الطلب فلأن لا يجدوا حســـداً ولا غيظاً من باب الأولى، فهذه الآية من أعظم حاث على حسن الإخاء محذر من الحسد

والاســـتياء. ولما أخبر عن تخليهم عن الرذائل أتبعه الإخبار بتحليهم بالفضائل فقال: {ويؤثرون} عظم ذلك بقصر الفعل فصار المعنى: يوقعون الأثرة وهي اختيار الأشياء الحسنة لغيرهم تخصيصاً لهم بها لا على أحبائهم مثلاً بل {على أنفسهم} فيبذلون لغيرهم {كائناً} من كان ما في أيديهم، وذكر النفس دليل على أنهم في غاية النزاهة من الرذائل لأن النفس إذا ظهرت كان القلب أطهر، وأكد ذلك بقوله: {ولو كان} أي كوناً هو في غاية المكنة {بهم} أي خاصة لا بالمؤثر {خصاصة} أي فقر وخلل في الأحوال وحاجة شديدة تحيط بهم من كل جانب، من خصائص البناء وهي فرجه.

ولما كان التقدير: فمن كان كذلك فهو من الصـــادقين: عطف عليه قوله: {ومن} ولما كان المقصـــود النزاهة عن الرذيلة من أي جهة كانت، وكان علاج الرذائل صعباً جداً، لا يطيقه الإنسان إلا بمعونة من الله شديدة، بنى للمفعول قوله: {يوق شح نفسه} أي يحصل بينه وبين أخلاقه الذميمة المشار إليها بالنفس، وقاية تحول بينه وبينها، فلا يكون مانعاً لما عنده، حريصـــاً على ما عند غيره حسـداً، قال ابن عمر رضـي الله عنه: الشـح أن تطمح عين الرجل فيما ليس له، قال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

ولما كان النظر إلى التطهير من سـفسـاف الأخلاق عظيماً، سـبب عنه إفهاماً لأنه لا يحصل ما سببه عنه بدونه قوله {فأولئك}: أي العالو المنزلة {هم} أي خاصـة لا غيرهم {المفلحون *} أي الكاملون في الفوز بكل مراد، قال القشـيري: وتجرد القلب من الأعراض والأملاك صـفة السادة والأكابر،

ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في مصارفة معاملته ومطالبة الناس في استيفاء حظه، فليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء.

وشـــرح الآية أن الأنصـــار كانوا لما قدم عليهم المهاجرون قســـموا دورهم وأموالهم بينهم وبينهم، فلما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير خطب النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم إياهم وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير»، وكان المهاجرون على ما هم عليه من الســـكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطتيهم وخرجوا من دياركم، فقال السعدان رضـي الله عنهما: بل يقسم بين المهاجرين خاصـة ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصـار: رضـينا وسلمنا، وفي رواية أنهم قالوا: اقسـم فيها هذه خاصــة واقسـم لهم من أموالنا ما شـئت، فنزلت {ويؤثرون على أنفســهم}- الآية، وقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: «اللهم ارحم الأنصـــار وأبناء الأنصـــار، وقال أبو بكر الصـديق رضــي الله عنه: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار»، فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال العنزي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت *** بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أنا أمنا *** تلاقي الذي يلقون منا لملت

فهم لعمري الحقيقون باسم إخوان الصفاء، وخلان المروءة والوفاء، والكرامة والاصـــطفاء، ورضـــي الله عنهم وعن تابعيهم من الكرام الخلفاء والســـادة والحنفاء.

▲ تفسير الآية رقم [10]

{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (10)}

ولما أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم بما هم أهله، التابعين لهم بإحسان ما يوجب لهم الثناء فقال عاطفاً على المهاجرين فيقتضي التشريك معهم، أو على أصل القصة من عطف الجمل: {والذين جاؤوا} أي من أي طائفة كانوا، ولما كان المراد المجيء ولو في زمن يسير، أثبت الجار فقال: {من بعدهم} أي بعد المهاجرين والأنصار وهم من آمن بعد انقطاع الهجرة بالفتح وبعد إيمان الأنصار الذين أسلموا بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، ثم ذكر الخبر أو الحال على نحو ما مضى في الذي قبله فقال تعالى: {يقولون} أي على سبيل التجديد والاستمرار تصديقاً لإيمانهم بدعائهم لمن سنه لهم: {ربنا} أي أيها المحسن إلينا بإيجاد من مهد الدين قبلنا. ولما كان الإنسان وإن اجتهد موضعاً للنقصان قال ملقناً لنا: {اغفر} أي أوقع الستر على النقائص أعيانها وآثارها {لنا} ولما بدؤوا بأنفسهم، ثنوا بمن كان السبب في إيمانهم فقالوا: {ولإخواننا} أي في الدين فإنه أعظم أخوة، وبينوا العلة بقولهم: {الذين سبقونا بالإيمان} ولما لقنهم سبحانه حسن الخلافة لمن مهد لهم ما هم فيه،

أتبعه تلقين ما يعاشـــرون به أعضـــادهم الذين هم معهم على وجه يعم من قبلهم، فقال معلماً بأن الأمر كله بيده حثاً على الالتجاء إليه من أخطار النفس التي هي أعدى الأعداء: {ولا تجعل} وأفهم قوله: {في قلوبنا} أن رذائل النفس قل أن تنفك وأنها إن كانت مع صحة القلب أوشك أن لا تؤثر {غلاًّ} أي ضــغناً وحســداً وحقداً وهو حرارة وغليان يوجب الانتقام {للذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان وإن كانوا في أدنى درجاته.

ولما كان هذا دعاء جامعاً للخير، لقنهم ما يجيبهم في لزومه والتخلق به مع ما فيه من التملق للإله والتعريض له بقوة الرجاء فقال: {ربنا} أي أيها المحســـن إلينا بتعليم ما لمن نكن نعلم، وأكدوا إعلاماً بأنهم يعتقدون ما يقولونه وإن ظهر من أفعالهم ما يقدح في اعتقادهم ولو في بعض الأوقات فقالوا: {إنك رؤوف} أي راحم أشد الرحمة لمن كانت له بك وصلة بفعل من أفعال الخير {رحيم *} مكرم غاية الإكرام لمن أردته ولو لم يكن له وصـلة، فأنت جدير بأن تجيبنا لأنا بين أن يكون لنا وصـــلة فنكون من أهل الرأفة، أو لا فنكون من أهل الرحمة، فقد أفادت هذه الآية أن من كان في قلبه غل على أحد من الصحابة رضي الله عنهم فليس ممن عنى الله بهذه الآية.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 14]

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُـــرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْـــهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً

فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14)}

ولما دل على أن هذا الثناء للصادقين في الإيمان بإقامة السنة بالهجرة والإيثار والاجتهاد في الدعاء لمن تبين الإيمان فسهل به طريق الأمان، فأخرج ذلك المنافقين وأفهم أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم لا رسوخ لهم في الإيمان الحامل على ذلك، دل على نفاقهم الموجب لكذبهم بقوله متمماً للقصة مخاطباً لأعلى الخلق إشارة إلى أنه لا يطلع على نفاقهم لما لهم فيه من دقة المكر حق الاطلاع غيره صلى الله عليه وسلم معجباً من حالهم في عدم رسوخهم مع ما يرون من المعجزات والآيات البينات ويرون من حال المؤمنين من إسباغ الرحمة عليهم بتسهيل الأمور والنصرة على الجبابرة والإعراض عن الدنيا مع الإقبال على الآخرة والاجتهاد في الدين الذي هو وحده داع إلى الإيمان ومرقق للقلوب ومبين للحقائق غاية البيان: {ألم تر} أي تعلم علماً هو في قوة الجزم به كالمشاهد يا أعلى الخلق، وبين بعدهم عن جنابه العالي ومنصبه الشريف الغالي بأداة الانتهاء فقال تعالى: {إلى الذين نافقوا} أي أظهروا غير ما أضمروا، أظهروا الخير وبالغوا في إخفاء عقائدهم بالشر مبالغة من ساجل غيره، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، قالوا: والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبله، وهو استعارة من فعل الضب في نافقائه وقاصعائه، وصور حالهم بقوله: {يقولون لإخوانهم} أي من الموالاة بالضلالة.

ولما جمعهم في الكفر وإن افترقوا في المساترة والمجاهرة، وصف المجاهرين بنوع مساترة توجب النفرة منهم وتقضي بهلاك من صادقهم فقال: {الذي كفروا} أي غطوا أنوار المعارف التي دلتهم على الحق، وعينهم بما أبلغ في ذمهم من حيث إنهم ضلوا على علم فقال: {من أهل الكتاب} وهم بنو النضير هؤلاء، وبكتهم بكذبهم فيما أكدوا الموعد به لأنه في حيز ما ينكر من جهة أنهم لا يقدرون على المجاهرة بكفرهم فكيف بالمبارزة بالخلاف لقومهم الأنصار والنبي صلى الله عليه وسلم فيهم في قولهم: {لئن أخرجتم} أي من مخرج ما من بلدهم الذي في المدينة الشريفة فخرجتم من غير أن تقاتلوا {لنخرجن معكم} فكان ما قضي به على إخوانهم من الإخراج فألاً وكل بمنطقهم.

ولما كان من المعلوم أن للمنافقين أقارب من أكابر المؤمنين، وكان من المعلوم- أنهم يقومون عليهم في منعهم من القيام معهم نصيحة لهم وإحساناً إليهم، وكان تجويز بني النضير موهناً لذلك، قالوا مؤكدين للكون معهم: {ولا نطيع فيكم} أي في خذلانكم، والمعنى أنه لو فرض أنه صار أحد في القرب منكم مثل قرب المظروف من الظرف ما أطعناه في التقصير فيما يسركم {أحداً} أي يسألنا خذلانكم من الرسول والمؤمنين، وأكدوا بقولهم: {أبداً} أي ما دمنا نعيش، وبمثل هذا العزم استحق الكافر الخلود الأبدي في العذاب.

ولما قدموا في معونتهم ما كان فألاً قاضياً عليهم، أتبعوه قولهم: {وإن قوتلتم} أي من أي مقاتل كان فقاتلتم ولم تخرجوا {لننصرنكم} فالآية من الاحتباك: ذكر الإخراج أولاً دليلاً على ضده ثانياً، والقتال ثانياً دليلاً على حذف ضده

أولاً، ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير: «اخرجوا من بلدي ولا تســاكنوني، قد هممتم بالغدر بن وقد أجلتكم عشــراً، فمن رئي بعد لك منكم ضربت عنقه» فأرسل إليهم ابن أبي بما تقدم.

ولما كان قولهم هذا كلاماً يقضـــي عليه ســـامعه بالصـــدق من حيث كونه مؤكداً مع كونه مبتدأ من غير سؤال فيه، بين حاله سبحانه بقوله: {والله} أي يقولون ذلك والحال أن المحيط بكل شــيء قدرة وعلماً {يشــهد} بما يعلم من بواطنهم في عالم الغيب. ولما كان بعض من يســمع قولهم هذا ينكر أن لا يطـابقـه الواقع، وكـان إخلافهم فيـه متحققاً في علم الله، أطلق عليـه مـا لا يطلق إلا على ما كشف الواقع عن أنه غير مطابق، فقال تشجيعاً للمؤمنين على قتالهم مؤكداً {إنهم} أي المنافقون {لكاذبون *} وهذا من أعظم دلائل النبوة لأنه إخبار بمغيب بعيدة عن العادة بشهادة ما ظننتم أن يخرجوا فحققه الله عن قريب.

ولما كان الكذب في قولهم هذا كونه إخباراً بما لا يكون، شـرحه بقوله مؤكداً بأعظم من تأكيدهم: {لئن أخرجوا} أي بنو النضـير من أي مخرج كان {لا يخرجون} أي المنافقون {معهم} أي حمية لهم لأســـباب يعلمها الله {ولئن قوتلوا} أي اليهود من أي مقاتل كان فكيف بأشجع الخلق وأعلمهم صلى الله عليه وسلم {لا ينصـرونهم} أي المنافقون ولقد صـدق الله وكذبوا في الأمرين معاً: القتال والإخراج، لا نصـــروهم ولا خرجوا معهم، فكان ذلك من أعلام النبوة، وعلم به من كان شاكاً فضـلاً عن الموقنين، صـدق الكلام على ما لم يكن ولا ليكون لو كان كيف كان يكون بصدق الكلام على ما لم يكن ويكون

كيف يكون إذا كان في قوله تعالى: {ولئن نصروهم} أي المنافقون في وقت من الأوقات {ليولن} أي المنافقون ومن ينصرونه، وحقرهم بقوله: {الأدبار} ولما كان من عادة العرب الكر بعد الفر، بين أنهم لا كرة لهم بعد هذه الفرة وإن طال المدى فقال: {ثم لا ينصرون *} أي لا يتجدد لفريقيهم ولا لواحد منهما نصرة في وقت من الأوقات، وقد صدق سبحانه لم يزل المنافقون واليهود في الذل ولا يزالون.

ولما كان ربما قيل: إن تركهم لنصرهم إنما هو لخوف الله أو غير ذلك مما يحسن وقعه، علل بما ينفي ذلك ويظهر أن محط نظرهم المحسوسات كالبهائم فقال مؤكداً له لأجل أن أهل النفاق ينكرون ذلك وكذا من قرب حاله منهم: {لا أنتم} أيها المؤمنون {أشد رهبة} أي من جهة الرهبة وهو تمييز محول عن المبتدأ أي لرهبتكم الكائنة فيهم أشد وأعظم {في صدورهم} أي اليهود ومن ينصرهم مما أفاض إليها من قلوبهم {من الله} أي من رهبتهم التي يظهرونها لكم منه وإن ذكروه بكل صفة من صفاته فرهبتهم منكم بسبب لإظهارهم أنه يرهبون الله رياء لكم.

ولما كان هذا مما يتعجب منه المؤمن علله بقوله: {ذلك} أي الأمر الغريب وهو خوفهم الثابت اللازم من مخلوق مثلهم ضعيف يزينهم له وعدم خوفهم من الخالق على ما له من العظمة وذاته ولكونه غنياً عنهم {بأنهم قوم} أي على ما لهم من القوة {لا يفقهون *} أي لا يتجدد لهم بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات فهم يشرح صدورهم ليدركوا به أن الله هو الذي ينبغي إن يخشى لا غيره، بل هم كالحيوانات لا نظر لهم

إلى الغيب إنما هم مع المحسوسات، والفقه هو العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بسرعة فطنة وجودة قريحة.

ولما أخبر برهبتهم دل عليها بقوله: {لا يقاتلونكم} أي كل من الفريقين اليهود والمنافقين أو أحدهما. ولما كان الشيء قد يطلق ويراد بعضه، حقق الأمر بقوله: {جميعاً} أي قتالاً يقصدونه مجاهرة وهم مجتمعون كلهم في وقت من الأوقات ومكان من الأماكن {إلا في قرى محصنة} أي ممنعة بحفظ الدروب وهي السكك الواسعة بالأبواب والخنادق ونحوها {أو من وراء جدر} أي محيط بهم سواء كان بقرية أو غيرها لشدة خوفهم، وقد أخرج بهذا ما حصل من بعضهم عن ضرورة كاليسير، ومن كان ينزل من أهل خيبر من الحصن يبارز ونحو ذلك، فإنه لم يكن عن اجتماع، أو يكون هذا خاصاً ببني النضير في هذه الكرة.

ولما كان ربما ظن أن هذا عن عجز منهم لازم لهم دفعه بقوه إعلاماً بأنه إنما هو من معجزات هذا الدين: {بأسهم} أي قوتهم ما فيهم من الصفات التي يتأثر عنها العذاب {بينهم شديد} أي إذا أداروا رأياً أو حارب بعضهم بعضاً فجرأ المؤمنين عليهم بأن ما ينظرونه من شدتهم وشجاعتهم إذا حاربوا المشركين لا ينكر عند محاربة المؤمنين كرامة أكرم الله بها المؤمنين تتضمن علماً من أعلام النبوة تقوية لإيمانهم وإعلاء لشأنهم.

ولما كانت علة الشدة الاجتماع، شرح حالتي الشدة والرهبة بقوله مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى شدة ما يظهرون من ألف بعضهم لبعض: {تحسبهم} أي اليهود والمنافقين يا أعلى الخلق ويا أيها الناظر من

كان ذلك التعاطف الظاهر {جميعاً} لما هم فيه من اجتماع الدفاع وعن ذلك نشأت الشدة {وقلوبهم شتى} أي مفترقة أشد افتراق، وعن ذلك نشأت الرهبة، وموجب هذا الشـــتات اختلاف الأهواء التي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحق كاجتماع البهائم في الهرب من الذئب، قال القشـيري: اجتماع النفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصـل كل فساد وموجب كل تخاذل، ومقتض لتجاسر العدو، واتفاق القلوب والاشـتراك في الهمة والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة.

ولما كان السـبب الأعظم في الافتراق ضـعف العقل، قال معللاً: {ذلك} أي الأمر الغريب من الافتراق بعد الاتفاق الذي يخيل الاجتماع {بأنهم قوم} أي مع شدتهم {لا يعقلون *} فلا دين لهم يجمعهم لعلمهم أنهم على الباطل فهم أســـرى الأهوية، والأهوية في غاية الاختلاف، فالعقل مدار الاجتماع كما كان الصــحابة رضـــوان الله عليهم أجمعين في زمن النبي صـــلى الله عليه وسلم كما أن الهوى مدار الاختلاف.

S

▲ تفسير الآيات رقم [15- 17]

{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)}

ولما كان الإخبار بعدم عقلهم دعوى دل عليها بأمر مشـــاهد فقال: {كمثل} أي قصتهم في عدم فقههم بل عقلهم الذي نشأ عنه إخراجهم هذا وما سببه من مكرهم وغدرهم واعتمادهم على ابن أبيّ ومن معه من المنافقين كمثل قصة {الذين من قبلهم} ولما كان إدخال الجار مع دلالته على عدم استغراق زمان القبل يدل على قرب الزمن، صرجح به فقال: {قريباً} وهم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما بنو قينقاع من أهل دينهم اليهود أظهروا بأساً شديداً عند ما قصدهم النبي صلى الله عليه وسلم غزوة بدر فوعظهم وحذرهم بأس الله فقالوا: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فأصـــــبت منهم، وأما والله لو قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، ثم مكروا بامرأة من المسلمين فأرادوها على كشف وجهها فأبت فعقدوا طرف ثوبها من تحت خمارها، فما قامت انكشفت سوأتها فصاحت فغار لها شخص من الصحابة رضـــــي الله عنهم، فقتل اليهودي الذي عقد ثوبها فقتلوه، فانتقض عهدهم، فأنزل النبي صـــلى الله عليه وســلم بســاحتهم جنود الله فأذلهم الله ونزلوا من حصنهم على حكمه صلى الله عليه وسلم وقد كانوا حلفاء ابن أبيّ، ولم يغن عنهم شيئاً غير أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في أن لا يقتلهم وألح عليه حتى كف عن قتلهم فذهبوا عن المدينة الشريفة بأنفسهم من غير حشر لهم بالإلزام بالجلاء.

ولما كان كأنه قيل: ما كان خبرهم؟ قال: {ذاقوا وبال} أي وخامة وســـوء عاقبة {أمرهم} في الدنيا وهو كفرهم وعداوتهم لرســـول الله صـــلى الله عليه وسلم وحزبه الذين هم حزب الله، وسماه أمراً لأنه مما ائتمروا فيه {ولهم} أي

في الآخرة {عذاب أليم *} أي شديد الإيلام، ولما شبه سبحانه أمرهم في طاعتهم لابن أبي ومن معه وهم البعداء المحترقون بسبب إبعاد المؤمنين لهم بإبعاد الله واحتراق أكبادهم لذلك مع ما أعد لهم في الآخرة بأمر بني قينقاع، شبه قصة الكل بقصة الشيطان ومن أطاعه من الإنس والجن، فقال مبيناً لمعنى ما حط عليه آخر الكلام: {كمثل} أي مثل الكل الواعدين بالنصر والمغترين بوعدهم مع علمهم بأن الله كتب في الذكر {لأغلبن أنا ورسلي} [المجالة: 21] في إخلافهم الوعد وإسلامهم إياهم عند ما حق الأمر يشبه مثل {الشيطان} أي البعيد من كل خير لبعده من الله المحترق بعذابه، والشيطان هنا مثل المنافقين {إذا قال للإنسان} أي كل من فيه نوس واضطراب وهو هنا مثل اليهود: {اكفر} أي بالله بما زين له ووسوس إليه من اتباع الشهوات القائم مقام الأمر.

ولما كان الإنسان بما يساعد تزيين الشيطان عليه من شهواته وحُظوظه وأخلاقه يطيع أمره غالباً قال: {فلما كفر} أي أوجد الكفر على أي وجه كان، ودلت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه {قال} أي الشيطان الذي هو هنا عبارة عن المنافقين مؤكداً لما لمن تعلق بمن أكد له الوعد بشيء من صادق الاعتماد عليه والتكذيب بأنه يخذله: {إني بريء منك} أي ليس بيني وبينك علاقة في شيء أصلاً ظناً منه أن هذه البراءة تنفعه شيئاً مما استوجبه المأمور بقبوله لأمره، وذلك كناية عن أنه فعل معه من الإعراض عنه والتمادي في كل ما يدل على إهماله من أكد البراءة منه، وذلك كما فعل المنافقون باليهود جرؤوهم على أمر ينهى وهو الإقامة في بلدهم، فلما نصبوا

الحرب طمعاً في نصـــرهم فعل المنافقون بتباطؤهم عنهم فعل المتبرئ منهم فكان ذلك أشـد عليهم مما لم يطمعوهم في نصـرهم لأن هذا بمنزله انـهزامهم عنهم من الصــف الموجب لانهزامهم لا محالة، ثم علل البراءة بقوله: {إني أخاف الله} أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فلا تطاق صولته، ثم شرح ذلك بقوله: {رب العالمين *} أي الذي أوجدهم من العدم ورباهم بما يدل على جميع الأسـماء الحسـنى والصـفات العلى، فلا يغني أحد من خلقه عن أحد شيئاً إلا بإذنه وهو لا يغفر أصـلاً لمن يقدح ربوبيته ولا سيما إن نسبها إلى غيره، وكان هذا كمثل ما يجد الإنســان بعد الوقوع في المعصـــية من الندم والحيرة، فإذا وجد ذلك وهم بالتوبة زين له المعصية وصعب عليه أمر التوبة وعسره وجراه على المعصية بعينها أو على ما هو أكبر منها، ولا يزال كذلك حتى يتعذر عليه الرجوع فيتحقق هلاكه وهلاك من أوقعه، فلذلك سـبب عنه قوله: {فكان} ولما كان تقديم الشـيء على محله موجباً لروعة تنبه الإنسـان للتفتيش عن الســبب والتشــويق إلى المؤخر قال: {عاقبتهما} مقدماً لخبر «كان» {أنهما} أي الغار والمغرور {في النار} حال كونهما {خالدين فيها} لأنهما ظلما ظلماً لا فلاح معه.

ولما كان ذلك قد يحمل على أنه في الإنســان بعينه، قال معلقاً بالوصــف، تعميماً وزجراً عنه: {وذلك} أي العذاب الأكبر {جزاء الظالمين *} أي كل من وضع العبادة في غير محلها.

▲ تفسير الآيات رقم [18- 21]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)}

ولما أبلغ سبحانه في المواعظ في هذه السورة قولاً وفعلاً، وكانت الإيقاعات المذكورة فيها مسببة عن الخيانات ممن كان له عهد فنقضه، أو ممن كان أظهر الإيمان فأبان فعله كذبه، قال سبحانه وتعالى استنتاجاً عن ذلك وعظاً للمؤمنين لأن الوعظ بعد المصائب أوقع في النفس وأعظم في ترقيق القلب وتحذيره مما يوجب العقوبة: {يا أيها الذين آمنوا} منادياً لهم نداء البعد معبراً بأدنى أسنان الإيمان لأنه عقب ذكر من أقر بلسانه فقط {اتقوا الله} أي اجعلوا لكم وقاية تقيكم سخط الملك الأعظم الذي لا أمر لأحد معه ولا بد أن يستعرض عبيده، فاحذروا عقوبته بسبب التقصير فيما حده لكم من أمر أو نهي {ولتنظر نفس} أي كل نفس تنظر إلى نفاستها وتريد العلو على أقرانها، ولعله وحدها للإشارة مع إفادة التعميم إلى قلة الممثل لهذا الأمر جداً {ما قدمت} أي من الزاد الذي يكون به صلاح المنزل الذي من لم يسع في إصلاحه لم يكن له راحة، هل يرضي الملك ما قدمته فينجيها أو يغضبه فيرديها.

ولما كان الأجل مبهم الوقت، فكان لقاء الله في كل يوم بل كل لحظة للعاقل مترقباً لكونه ممكناً مع كونه على الإطلاق محققاً لا يجهله أحد، قال مشيراً

بتنكيره وإبهامه إلى تهويله وإعظامه: {لغد} أي لأجل العرض بعد الموت أو في يوم القيامة الذي هو في غاية القرب لأن هذه الدنيا كلها يوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون، والموت أو الآخرة غده، لا بد من كل منهما، وكل ما لا بد منه فهو في غاية القرب لا سـيما إن كان باقياً غير منقض، وكل من نظر لغده أحسن مراعاة يومه، وتنوينه للتعظيم من جهات لا تحصى.

ولما أمر بتقواه سبحانه خوفاً من سطواته أمر بتقواه لأجل مراقبته حياء من جلالته وهيبته تأكيداً للأمر لأن مدار النجاة على التقوى لأن مكايد الشيطان دقيقة، فمن لم يبالغ في محاسـبة نفسـه وتفقد ما يمكن أن يكون من الخلل في أعماله أوشـك أن يحبط الشـيطان أعماله فقال تعالى: {واتقوا الله} أي الجامع لجميع صـفات الكمال أي اتقوه حياء منه، فالتقوى الأولى لإيجاد صـور الأعمال، وهذه لتصـفيتها وتزكية أرواحها، ولذلك علل بقوله مرغباً مرهباً: {إن الله} أي الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى {خبير} أي عظيم الاطلاع على ظواهركم وبواطنكم والإحاطة {بما تعملون *} فلا تعملون عملاً إلا كان بمرأى منه ومسمع فاستحيوا منه، وكرر الاسم الأعظم كراهية أن يظن تقييد التقوى بحيثية من الحيثيات تعظيماً لهذا المقام إعلاماً بأن شؤونه لا تنحصر وأن إحاطته لا تخص مقاماً دون مقام ولا شأناً سوى شأن.

ولما هز إلى تقواه تارة بالخوف وأخرى بالحياء تأكيداً لها، وعلل ذلك بما له شـعبة من التحذير، وكان الإنسـان لما له من النسـيان أحوج إلى التحذير، قال مؤكداً لشـعبته وإيضـاحاً لأن التقوى الثانية لمحاسـبة النفس في تصـفية

العمل: {ولا تكونوا} أيها المحتاجون إلى التحذير وهم الذي آمنوا {كالذين نسوا الله} أي أعرضوا عن أوامره ونواهيه وتركوها ترك الناسين لمن برزت عنه مع ما له من صفات الجلال والإكرام لما استغواهم به من أمره الشيطان حتى أبعدهم جداً عن العمران {فأنساهم} أي فتسبب عن ذلك أن أنساهم بما له من الإحاطة بالظواهر والبواطن {أنفسهم} فلم يقدموا لها ما ينفعها وإن قدموا شيئاً كان مشوباً بالمفسدات من الرياء والعجب، فكانوا مما قال فيه. سبحانه وتعالى {وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية} [الغاشية: 2- 3- 4- 5] لأنهم لم يدعوا باباً من أبواب الفسق فإن رأس الفسق الجهل بالله، ورأس العلم ومفتاح الحكمة معرفة النفس، فأعرف الناس بنفسه أعرفهم بربه «من عرف نفسه فقد عرف ربه». ولما كانت ثمرة ذلك أنهم أضاعوها- أي التقوى- فهلكوا قال: {أولئك} أي البعيدون من كل خير {هم} أي خاصة دون غيرهم {الفاسقون *} أي العريقون في المروق من دائرة الدين.

ولما تم الدليل على أن حزب الله هم المفلحون لما أيدهم به في هذه الحياة الدنيا من النصر والشدة على الأعداء واللين والمعاضدة للأولياء وسائر الأفعال الموصلة إلى جنة المأوى، وصرح في آخر الدليل بخسران حزب الشيطان فعلم أن لهم مع هذا الهوان عذاب النيران، وكان المغرور بعد هذا بالدنيا الغافل عن الآخرة لأجل شهوات فانية وحظوظ زائلة عاملاً عمل من يعتقد أنه لا فرق بين الشقي بالنار والسعيد بالجنة لتجشمه التجرع لمرارات الأعمال المشتملة عليها، أشج ذلك قوله منزلاً لهم منزلة الجازم بذلك أو

الغافل عنه تنبيهاً لهم على غلطهم وإيقاظاً من غفلتهم: {لا يستوي} أي بوجه من الوجوه {أصحاب النار} التي هي محل الشقاء الأعظم {وأصحاب الجنة} التي هي دار النعيم الأكبر لا في الدنيا ولا في الآخرة وهي من أدلة أنه لا يقتل مسلم بكافر.

ولما كان نفي الاستواء غير معلم في حد ذاته بالأعلى من الأمرين، كان هذا السياق معلماً بما حفه من القرائن بعلو أهل الجنة، صرح به في قوله: {أصحاب الجنة هم} أي خاصة {الفائزون *} المدركون لكل محبوب الناجون من كل مكروه، وأصحاب النار هم الهالكون في الدارين كما وقع في هذه الغزوة لفريقي المؤمنين وبني النضير ومن والاهم من المنافقين، فشتان ما بينهما.

ولما كان قد مر في هذه السورة فضلاً عما تقدمها من حكمة هذا القرآن وإعجازه تارة بمطابقته لما نزل بسببه مطابقة تجلو عنه كل إشكال، وتارة بما يشاهد من صدقه فيما أخبر بإتيانه من الأفعال، وأخرى بما يتحدى به من الأقوال، ومرة بنظم كل جملة مع ما تقدمها على ما لم يكن لبشر مثله في الأحوال إلى غير ذلك من أمور لا يحصرها المقال، ترتب على ذلك قوله مبيناً أن سبب افتراق الفريقين في العقبى افتراقهم في هذا القرآن في الأولى تمثيلاً للقلوب في قسوتها أو لينها عند سماع القرآن وتخيلاً توبيخاً للقاسي ومدحاً للعاطف اللين لافتاً القول إلى أسلوب العظمة لاقتضاء الحال لها: {لو أنزلنا} بعظمتنا التي أبانها هذا الإنزال {هذا القرآن} أي الجامع لجميع العلوم، الفارق بين كل ملتبس- المبين لجميع الحكم {على جبل} أي أي

جبل كان {لرأيته} مع صـــلابته وقوته يا أشـــرف الخلق إن لم يتأهل غيرك لمثل تلك الرؤية {خاشـــعاً} أي مطمئناً مخبتاً على صـــلابته متذللاً باكياً {متصـدعاً} أي متشـققاً غاية التشـقق كما تصـدع الطور لتجلينا له بما دون ذلك من العظمة التي جلونا كلامنا الشريف لموسى عليه السلام في ملابسها {من خشـــية الله} أي من الخوف العظيم من له الكمال كله حذراً من أن لا يكون مؤدياً ما افترض عليه من تعظيم القرآن عند ســـــماعه فما لابن لآدم وقد آتاه الله من العقل ما لم يؤت الجبل يســـتخف بحقه، ويعرض عما فيه من العبر، وفي الآية مدح للنبي صـلى الله عليه وسـلم في ثباته لما لا تثبت له الجبال، وذم للمعرضين بكونهم أقسى من الجبال.

ولما كان التقدير تبكيتاً وتوبيخاً لمن لم يرق للقرآن {أفلم يأن للذين آمنوا أن تخشـع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق} [الحديد: 16] فإنا قد فصـلنا لهم الحلال والحرام والأمر والنهي وأوضحنا الحكم ودللنا على المتشابه وقصصنا الأقاصـــيص بعد جعلهم عقلاء ناطقين، فتلك أقاصـــيص الماضـــين لعلهم يعتبرون عطف عليه قوله: {وتلك الأمثال} أي التي لا يضـــاد فيها شـــيء {نضربها للناس} أي الذي يحتاجونها وهم من فيهم تذبذب واضطراب {لعلهم يتفكرون *} أي لتكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى تفكره في تلك الأمثال فينفعه ذلك إذا أراد التفكر إلى التذكر فرأى تنبيه الرسـول صـلى الله عليه وســلم له أن كل ما في القرآن من شـــيء فيه مشـــاهد منه متطابق له كتاب الخلق وكتاب الأمر فتخلى عن الشـــهوات البهيمية فنجا من الحظوظ

النفســـية فتحلى بالملابس الروحانية فصـــار بالمجاهدات والمنازلات إلى الصفات الملكية فكان أهلاً للمقامات القدسية في الجنان العلية.

▲ تفسير الآيات رقم [22- 24]

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـــلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُـــبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـــرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)}

ولما أعلى ســـبحانه أولياءه بأن فتح الســـورة بالإيمان بالغيب وهو العزيز الحكيم بعد التنزيه عن نقائص التعطيل وكل شـــائبة نقص وينزل لعباده في أسـباب الصــفات والأفعال إلى أن أوصــلهم إلى محســوس الأمثال فتأهلوا للفناء في ذاته وما على صـــفاته الموجبة لخشـــيته، رقاهم إلى التفكر في تفصيل ما افتتح به، فقال عادلاً عن أسلوب العظمة إلى أعظم منها بإسبال حجب العزة على منهاج الحكمة: {هو} أي الذي وجوده من ذاته فلا عدم له أصــلاً بوجه من الوجوه، فلا يسـتحق الوصـف ب «هو» غيره لأنه الموجود دائماً أزلاً وأبداً، فهو حاضــر في كل ضـــمير غائب بعظمته عن كل حس، فلذلك يتصدع الجبل من خشيته.

ولما عبر بأخص أســمائه، أخبر عنه لطفاً بنا وتنزلاً لنا بأشـــهرها الذي هو مسـمّي الأسـماء كلها فقال: {الله} أي المعبود الذي لا ينبغي العبادة إلا له، الـذي بطن بمـا لم تحط ولا تحيط بـه العقول من نعوت الكبريـاء والعظمـة

والإكرام، فظهر بأفعاله التي لا تضـــاهى بوجه غاية الظهور، فتميز غاية التميز، فلم يلحقه شرك أصـلاً في أمة من الأمم ولا نسـمة من النسم، قال الحرالي في شـــرح الأســماء: وهو لوه القلوب والعقول أي محارها الذي لا تدركه، فلزم الخلق من توحيد اسم الإله ما حصل لهم من توحيد اسم الله من الأحدية الإحاطية- انتهى- فلذلك كان وصفه {الذي لا إله إلا هو} فإنه لا مجانس له ولا يليق ولا يصبح ولا يتصور أن يكافئه أو يدانيه شيء والإله أول اسم الله فلذلك- لا يكون أحداً مسلماً إلا بتوحيده فتوحيده فرض وهو أساس كل فريضة، وتوحيد سائر الأسماء نقل وهو أساس كل نافلة، فمن وحد في الكل فقد كمل دينه وتمت النعمة عليه وإلا كان من الذين آمنوا، فإن كان ذلك منه قولاً عصـــم من نار الأحكام على الأبدان في الدنيا، وإن كان علماً تخلص من نار الهلع على النفوس في الدنيا، وهو الجزع عند مس الشر، والمنع والبخل عند مس الخير، ولن يشهد التوحيد في هذه الكلمة التي مضمونها توحيد اسم الإله إحساناً إلا بعد إحصاء جميع الأسماء علماً، قال الحرالي: والإله: التعبد وهو التذلل، فمن توهم حاجته بشـيء وتوهم أن عنده قوام حاجته تذلل فكان تذلله له تألهاً، وكل من عبد ما أحاط عينه فقد خذل عقله عن تصـــحيح معنى الإله الذي يجب أن يكون غيباً، فكان تصـــحيح معنى الإله أنه غيب قائم مســـتحق للعبادة والتذلل لأجل قيامه والاستغناء به.

ولما أخبر بتفرده، دل عليه بآية اســـتحقاقه لذلك، فقال مقدماً لما هو متقدم في الوجود: {عالم الغيب} أي الذي غاب عن علم جميع خلقه.

ولما كنا ربما ظن أن وصــفه بالغيب أمر نسـبي سـمي غيباً بالنسـبة لناس دون ناس، دل بذكر الضــد على أن المراد كل ما غاب وكل ما شــهد فقال تعالى: {والشــهادة} أي الذي وجد فكان بحيث يحســه ويطلع عليه بعض خلقه.

ولما تعالى في صـــفات العظمة ونعوت الجلال والكبر فبطن غاية البطون، أخذ رحمة العبادة بالتنزيل لهم بالتعرف إليهم بعواطف الرحمة فقال بانياً الكلام على الضـــمير إعلاماً بأن المحدث عنه أولاً هو بعينه المحدث عنه ثانياً: {هو الرحمن} أي العام الرحمة، قال الحرالي رحمه الله تعالى: والرحمة إجراء الخلق على ما يوافق حسـبهم ويلائم خلقهم وخلقهم ومقصـد أفئدتهم، فإذا اختص ذلك بالبعض كان رحيمية، وإذا اســتغرق كان رحمانية، ولاستغراق معنى اسم الرحمن لم يكن لإتمام في معنى استغراقه– يعني باسم الله.

ولما كانت الرحيمية خاصـة بما ترضـاه الإلهية قال تعالى: {الرحيم *} أي ذو الرحمة العامة المســعدة في الظاهر والرحمة الخاصـــة المســـعدة في الباطن، قال الحرالي: الرحمة من الرحيم اختصــاص من شــملته الرحمانية بمزية ما أوثر بـه من الرحمـة في مقابلـة من آل أمره إلى نعمـه ليجمع مقتضـى الاسـمين بين عموم الرحمانية واختصـاص الرحيمية: ولما أظهر على الخلق خصــوص الإيثار، أجرى عليهم اســم الرحيم كرحمة الخلق أبناءهم. ولما كان حق اســم الرحيم إثبات رحمة غير مجذوذة ولم يكن ذلك للخلق لم يكن بالحقيقة الرحيم إلا الله الذي إذا اختص بالرحمة لم يحدها

{فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله ســـميع عليم} [البقرة: 256] «إن الله لا ينزع العلم انتزاعاً بعد أن أعطاكموه» {وأما الذين سـعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السـماوات والأرض إلا ما شـاء ربك عطاء غير مجذوذ} [هود: 108] فلذلك لا رحيم بالحقيقة إلا الله تحقيق علم كما أنه لا رحمان إلا الله بادي معنى.

ولما كان الملك كمال اســتيلاء على الخلق يقصـــرهم به ملكهم على بعض مستطاعهم ويدينهم- أي يجيزهم- على حسب دينهم أي ما وضـع لهم من عادة قصـــره لهم وحكمه عليهم وبحســـب إحصـــائه عليهم دقيق أعمالهم وإحاطته بخفي أحوالهم والاطلاع على ســـرائرهم بتحقيق اســـتيفاء الجزاء فيتحقق بذلك كمال الملك، فكان لذلك لا تتحقق حقيقة الملك فيمن هو دون العلم بالسـر وأخفى، والمحصـي الحسيب لمثاقيل الدر، الخبير بخبأ الكون، فكان لا ملك في الحقيقة إلا الله، ولكنه تعالى لما كان قد أولى الخلق من رفعه بعضـهم فوق بعض ما أجرى عليهم اسم الملك فتنة لهم فضـل بسـبب ذلك قوم ادعوا الملك الحقيقي، فغلط من أراد الله من الخلق فيهم فضلوا بهم، أعاد التهليل مع اسمه الملك كما ابتدأ مع اسمه الإله أول أسماء الله، ولذلك أيضـاً قال النبي صـلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضـي الله عنه الذي رواه الشـيخان وأبو داود والترمذى في حديث الذي يسـمى ملك الملوك في رواية المسلم:

»لا ملك إلا الله»، فقال مصـــرحاً بما في باطن اســـمي الرحمة من القهر والجبر على النسق الأول في البناء على الضمير تأكيداً لتعين المحدث عنه

وتوحيـده: {هو الله} أي الـذي لا يقـدر على تعميم الرحمـة لمن أراد وتخصـيصـها بمن شـاء {الذي لا إله} أي معبود بحق {إلا هو الملك} فلا ملك في الحقيقة إلا هو لأنه لا يحتاج إلى شيء، فإنه مهما أراد كان.
ولما كان الملك أصل ما لحق الخلق من الآفات لأنه رأس الشرف الذي هو باب الترف الملازم لمخالفة كتاب الله أما في الأعمال فيكون فتنة، وأما في الرأي فيكون علواً وكبراً وكفراً، فإن أمر الله في آدم على ماهو نبوة ثم ينزل فيصـــير خلافة ثم ينتهي نزوله فيكون ملكاً ثم تتداعى الأحداث، فلمكان تداعي الملك لموجبات الذم قال عقب صفات الملك: {القدوس} مصرحاً بما لزم عن تمام ملكه من أنه بليغ في النزاهة عن كل وصـم يدركه حسـن أو يتصوره خيال أو يسبق إليه وهم أيو يختلج به ضمير، فإن القدس طهر لا يقبل التغير ولا يلحقه رجس فلا يزال على وصـــف الحمد بثبات القدس، ولمكان ما حوّل سـبحانه الخلق من حال طهر لا يظهر فيه تغير بما دونه أجرى عليهم اسـم القدس كروح القدس المؤيد للشـارع ينفث في روعة المؤيد لشـاعره في مكافحته عنه، ولأجل قصـر تخلي الخالق بالملك في قليل متاع الدنيا رغب النبي العبد صـلى الله عليه وسـلم عنه، واختار العبودية الدائمة بدوام العزة لسـيده، فوضـح بذلك علم أن لا قدوس إلا الله حقيقة معنى وتصحيح إحاطة.
ولما كان سـبحانه لتمام ملكه وعلو ملكه وكمال قدسـه لا يتصـور أن يلحقه نقص في ذات ولا صفة ولا فعل، فلا يقبح منه إهلاك على حال من الأحوال ولا مس بضـر في الدنيا والآخرة في وقت من الأوقات لأنه سـبحانه، لعلمه

بالظواهر والبواطن على حد سواء، يصنع الأمور في أحكم مواضعها بما لا يدركه غيره أصـــــلاً أو لا يدركه حق إدراكه فاحتيج إلى ما يؤمن من ذلك، وكان السلام حد ما بين الألفة والفرقة وحد ما بين الرحمة والسطوة وهو أدنى منال الجاهل من عباد الرحمان، ومنال المعتدي من المقتدر، وكان ســــلام المســـلم للجاهل مداراة لئلا يزيد في جهله عليه، أو ارتقاباً لاســـتقبال مكنة، وكان الله لا يعبأ بالخلق ولا يحتاج لارتقاب مكنة لأنه لا يعجزه شــــيء فلم يتحقق السلام بكل معنى من وجود السلامة له وإفاضتها على غيره تماماً إلا منه إعفاء من معاجلة استحقاق السطوة وحفيظة لحرمة اختصاص الرحمة، أتبع ذلك مؤمناً للعاصـــي من المعاجلة وللمطيع من ســـوء المعاملة قوله: {السلام} لأنه حد ما بينهما ظاهراً، ولذلك أردفه بما يتعلق بالباطن لتحصل إحاطة السـلامة ظاهراً وباطناً فقال: {المؤمن} لأن الأمن حد ما بين المحبة والكره فيمن لا وسيلة له للحب وهو أدنى ما يقبله ذو الحق ممن يستحق منه الحب، ولذلك لم يقبل الحق ممن كان ظاهر الوسـيلة للحب- إلا بالحب فلم يثبت إيمان المؤمن بمجرد الإيمان حباً له بل إيثاراً لمحبته على كل حب ومسـاواة لأخيه المؤمن فيما يحب لنفســه، وأدناه الأمنة في الغيب من الغيبة والعيب إلى غاية الأمان من بوائق الغشـم والظلم من الجار المسـتحق حفظ جاره في غيبه، فالإحلال بالإيمان لكونه الأمنة في الغيب نفاق، والإخلال بالإسـلام لكونه السلم في المواجهة إحرام، فبأدنى إخلال في جانب الحق أو الخلق ينثلم الإســـلام والإيمان، وذلك كله إنما هو في الحقيقة من الله تعالى

فهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ومنع أسباب المخاوف فلا أمن في الوجود ولا أمان إلا وهو مستفاد من جهته.
ولما كان الاطلاع على بيّن ما ذكر ليتحقق معنى السـلم والأمن، وعلى كل من تلك الحدود خفياً جداً يفتقر إلى مزيد علم، قال: {المهيمن} فإن الهيمنة شـهادة خبرة وإحاطة وإبصـار لكلية ظاهر الأمر وباطنه بحيث لا يخفى منه خافية هوية ولا بادية ظاهر، ولإحاطة معناه لا يكاد يقع له في الخلق مسوغ إطلاق إلا مسـامحة لأن الخلق لا يشـهدون إلا الظواهر ولا يشـهدون من الباطن، ولذلك انعجم معناه على كثير من فصـحاء العرب، فمفهوم معناه موجب توحيده فواضـح إذ لا مهيمن بمعنى أنه شـهيد على الوجه المشـروح مع الأمانة المأمونة والحفظ والرعاية فيكون قائماً على كل شـيء بكل ما له من رزق وعمل وأجل إلا هو، ولذلك كان القرآن الذي هو صـفته سـبحانه وتعالى مهيمناً على جميع الكتب التي قبله مصـدقاً لما يسـتحق التصـديق منها مكذباً لما يستحق التكذيب، فمن كان به أمهر كان بذلك أعلم.
ولما كان تمام الخبرة ملزوماً لتمام القدرة، صـرح بها اللازم فقال: {العزيز} والعزة غلبة لا يجد معها المغلوب وجه مدافعة وجه مدافعة ولا انفلات ولا إعجاز، فالعزيز الذي صعب على طالبه إدراكه مع افتقار كل شيء إليه في كل لحظة، الشـديد في انتقامه الذي لا معجز له في إنفاذ حكمه، ولذلك ينظم كثير بآيات إمضـاء الأحكام متصـلاً بالحكمة والعلم إنباء عن العدل، قال الغزالي: وهو الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه. ولما كان المغلوب على الشـيء فيؤخذ من يده قد لا ينقاد باطناً فلا

يباشر ما غلب عليه للغالب وقد لا يكون العز ظاهراً لكل أحد، أردفه بقوله: {الجبار} وهو العظيم الذي يفوت المقاوم مناله، فهو على هذا من أسـماء الذات ويصلح أمور من يريد من الخلق ويقهرهم على ما يريد، فهم أحقر من أن يعصـوه طرفة عين بغير إرادته، والجبر : طول يلجيء الأدنى لما يريد منه الأعلى ويغيب من الأعلى ما يحاول مناله منه الأدنى مع الظهور التام الذي تدور مادته عليه، فالجبار لا يخرج شيء من قبضته، وتقصر الأيدي عن حمى عز حضـرته، ولا ينال منه إلا ما نوّل، وهو أبعد شـيء عن أوصـاف الخلق لمنال الذباب منهم منا شـاء وعجزهم عنه، ولما فيه من الإلجاء كان هو الاسـم الذي يجليء النار لقصـرها على مراده منها من الحسب الذي جبلها على ضده من الاستزادة فلا تزال تقول ما جبلت عليه: هل من مزيد، حتى يضـع الجبار فيها قدمه أي يهينها فإن القدم موضـع الإهانة، وهذه الإهانة- هي من مبدأ ظهور غلبة الرحمة للغضب، فله الملك ظهوراً بالأيدي الظاهرة من الإنسـان وما دونه، وله الملكوت بطوناً بالأيدي الباطنة من الملك وما دونه، ولو الجبروت اختصـاصـاً من وراء كل ملك وملكوت.

ولما كان الإلجاء قد يكون بنوع ملاطفة، أتبعه قوله: {المتكبر} ليعم الإلجاء الظاهر والباطن فالكبرياء جملة تأدي أمر الله وظاهر خلقه الذي يجد الخلق صـغرهم من دونه وكبره عليهم وامتناعه عما لا يريد من مرادهم، لأن الكل حقيرون بالإضـافة إلى جلاله وعز جبروته وعظمته وكماله، ولسـواء الخلق في عام حضـرة القدرة شـملهم الصـغر فلم يصـح منهم كبر، ولا شـرع لهم

تكبر، فلم يكن للخلق منهم حقيقة حظ ولا لبس حق، فاختص بهذا الاسم لاستيلائه على الظواهر بإظهار ما لهم من الكبر لعدم الحاجة إلى شيء وبإلجاء غيره إلى الاحتياج إليه والإيقاع بجبابرتهم وإذلالهم وغير ذلك من الأمور المزعجة المرهبة من غير مبالاة بشيء كما اختص بالجبار لاستيلائه على البواطن.

ولما تقرر بما ذكر من مظاهر عظمته استيلاؤه على الظواهر والبواطن باللطف والعنف، أنتج ذلك تعاليه عن شوب نقص لا سيما بالشرك فقال سبحانه: {سبحان الله} أي تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شيء من نقص {عما يشركون *} أي من هذه المخلوقات من الأصنام وغيرهما مما في الأرض أو في السماء من كبير وصغير. وجليل وحقير.

ولما تم دليل الوحدانية بما حل من التفهيم بالتدني إلى الملك ثم بالتعلي إلى التكبر فأنتج هذه الخاتمة، ابتدأ سبحانه دليلاً آخر هو في غاية التنزل والوضوح، فقال مفتتحاً بما افتتح به الأول من الترتيب في المراتب الثلاث، غيب الغيب ثم الغيب ثم الظهور على مراتبه، إعلاماً بأنه لا براح عن الإيمان بالغيب، ومن برح عنه هلك {وهو} أي الذي لا شيء يستحق أن يطلق عليه هذا الضمير غيره لأن وجوده من ذاته ولا شيء غيره إلا وهو ممكن فهو أهل لأن لا يكون فلا يكون له ظهور ليكون له بطون.

ولما ابتدأ بهذا الغيب المحض الذي هو أظهر الأشـياء، أخبر عنه بأشــهر الأسماء الذي لم يقع فيه شركة بوجه فقال: {الله} أي الذي ليس له سمي فلا كفوء له فهو المعهود بالحق فلا شريك له بوجه. ولما بدأ سبحانه بهذا الدليل الجامع بين الغيب والظهور، ثنى بتنزيل متضـمن للعلم والقدرة فهو في غاية الظهور فقال: {الخالق} أي الذي لا خالق على الحقيقة إلا هو لأن الخلق فرض حد وقدر في مطلق منه لم يكن فيه بعد حد ولا قدر كالحاذي يخلق أي يقدر في الجلد حداً وقدراً لنعل ونحوه وهو ســـابق للفري والبري ونحو «سـبق العلم العمل» فالخالق في الحقيقة هو الذي كل شـيء عنده بمقدار، الذي يقول {يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق} [الزمر: 6] {وإن من شـــيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم} [الحجر: 21] ومن ناشــئة القدر الفرق والترتيب، ومن ناشــئة الفرق والترتيب الإحياء والإماتة، ومن معاد الفرق والإحياء والإماتة على أول أمره الجمع والرب، فلا يملك الخلق والفرق إلا من يملك الجمع والرب، وقد أوتي الحق ملكة ما في الفرق والشتات، ولم يملكوا جمع ما فرقوا ولا ألف ما شتتوا كالقاطع عضواً لا يقدر على لأمه، والهادم بناء لا يقدر على رمه على حده، والكاسر شيئاً لا يقدر على وصله، فلأن الخلق لا يحيطون بتقدير ما يسرعون في قدره ولا يقدرون بعد الفرق والفري على رمه ووصـــله كان المحيط التقدير في الشــــيء من جميع جهاته وجملة حدوده، القادر على جمع ما فرق الذي كما بدء أول خلق يعيده هو أحســـن الخالقين، وتلايح تحت هذا اللبس في إطلاق اســم الخـالق على الخـالق الحق ذي الحول والقوة والقـدرة والإحـاطـة والإبـداء

والإعادة، وعلى الخالق من الخلق المقدر بغير إحاطة علم ولا تأصـيل حول ولا قدرة، ولا إتمام إبداء لاحظ من إعادة أنه لا خالق إلا الله كما أنه لا معيد لما بدأ إلا الله، وأن ليس إطلاق هذا الاسم على الخلق مبدأ فتنته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، وتحقيق أفراد الخلق لله فيما ظهر على أيدي أهل الملك والملكوت وإحاطة جبروته بما ظهر وما بطن من أعمالهم وصـــنائعهم، هو أول مجمع من مجامع التوحيد، وهو أســـاس لإيمان أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث فرض عليهم في الفاتحة {إياك نعبد وإياك نســتعين} فهم خير أمة أخرجت للناس حيث أخلصـــوا الدين لله، ولموقع الشرك فيه كان القدرية مجوس هذه الأمة.

ولما كان الخالق الحق هو من أتقن التقدير والبريء وإن كان أغلب الخلق لقصورهم لا يفهمون منه إلا مطلق التقدير كما قال شاعرهم:

ولأنت تفري ما خلقت *** وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

أردفه تنبيهاً على ذلك وتصـريحاً وتأكيداً قوله: {البارئ} أي الذي يدقق بما وقع به التقدير ويقطعه ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال، فإن كان من المحيط العلم كان تمام التهيؤ للصـــورة على كمال المشـــيئة فيها، وإن كان ممن لا يحيط علماً طرأ له في البرء من النقص عن التمام ما لا يمكن معه حصول المقصود في الصورة، ولا يكاد يقع الإحسان للخلق في مصوراتهم إلا وفاقاً لا يعلمون كنهه ولا يثقون بحصوله.

ولما كان من يهيئ الأمور للتصـــوير قد لا يتقنه قال: {المصـــور} فإن التصوير إتمام تفصيل الخلق الظاهر وإكمال تخطيطه وإحكام أعضائه وهو

حد ما انتهى إليه الخلق في الظهور، وليس وراء ظهور الصـــور كون إلا لطائف تطويرها في إســـنان كمالها بعد بعثها بإحيائها بما لها من الروح المقوم لها سواء كان حيوانياً أو غيره إلى غاية كما لها الذي يعطيه المصور لها إفضــالاً ومزيداً ويظهره إبداعاً، ويتضــح الفرق جداً بين الأسـماء الثلاثة بـالبنـاء فـإنـه يحتـاج أولاً إلى مقدر يقدر مـا لا بـد منـه من الحجر واللبن والخشب والحديد ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس فيرســـمه وهو الخلق ثم يحتاج إلى حجار ينحت الحجارة ويهيئها لتصـــلح لمواضـــعها التي تكون فيها من الأبواب وأوســـاط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك، وكذا الخشاب والحداد في الخشب والحديد وهو البرئ ثم يأخذ الكل البناء فيضـــعها مواضـــعها إلى أن تقوم صـــورتها التي رســـمها المهندس أولاً وقدرها، ولا تقوم الصـــورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحســـب الطاقة كما أن البناء يضــع الحجارة أولاً ثم يجعل الخشــب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة، ولو قلب ذلك لم تثبت الصـورة ولم يكن لها الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره أعظم، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله الخالق البارئ المصـــور ســـبحانه، قال الرازي في اللوامع: والتصــوير موجود في كل أجزاء العالم وإن صــغر حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة، بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشـــكلها ومقاديرها وألوانها، ووجه الحكمة فيها، فمن لم يعرف صـورتها لم يعرف مصـورها إلا بالاسم المجمل، وهكذا القول في كل صـورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان.

ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصـــور بالغ الحكمة، أردفه بقوله تعالى: {له} أي خاصـة لا لغيره {الأسـماء الحسـنى} أي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه.

ولما أخبر سبحانه أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعاً لعزته وحكمته، ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسـمعه الآذان الواعية بالأسـماء الحســنى، دل على دوام اتصـــافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير فعبر بالمضـارع فقال: {يسبح} أي يكرر التنزيه الأعظم من كل شـائبة نقص على سـبيل التجدد والاسـتمرار {له} أي على وجه التخصيص بما أفهمه قصر المتعدي وتعديته باللام {ما في السماوات} ولما كان هذا المنزه الذي استجلى التنزيه من الأسماء الحسنى قد أشرقت أنفاسه ولطفت أقطاره وأغراسـه حتى صـار علوياً فرأى الأرض عالية كالسماء لما شــاركتها به في الدلالة على تمام كماله لجعلها معها لأنه لا يحتاج إلى تأكيد كالشــيء الواحد بإسـقاط «ما» وألصـقها بها إلاحة إلى ذلك فقال: {والأرض} فمن تأمل الوجود مجملاً ومفصـلاً، علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصـاف الجلال والجمال {وهو} أي والحال أنه وحده {العزيز} أي الذي يغلب كل شـيء ولا يغلبه شـيء ولا يوجد له مثل، ويعز الوصـول إليه ويشتد الحاجة إليه.

ولما كان من يكون بهذه الصـــفة لا يتم أمره وثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة قال: {الحكيم *} من الحكمة وهي إتقان الحكم وإنهاؤها إلى جد لا يمكن نقضـــهن والحكم قال الحرالي: المنع عما يترامى إليه

المحكوم إيالة عليه وحمله على ما يمتنع منه نظراً له، ففي ظاهره الجهد وفي باطنه الرفق، وفي عاجله الكره، وفي آجله الرضى والروح، فموقعه في الأبدان المداواة «تداووا عباد الله فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء»، وموقعه في الأديان التزام الأحكام والصبر والمصابرة على مجاهدة الأعمال وجهاد الأعداء ظاهراً من عدو الدين والبغي وباطناً من عدو النفس (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) ومن بعض الأهل والولد عدو، والشيطان عدو يجري من ابن آدم مجرى الدم {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً} [فاطر: 6] فالحمل على جميع أنواع الصبر والمصابرة ظاهراً بالإيالة العالية هو الحكم والعلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم من قوام أمر عاجلته وحسن العقبى في آجلته من الحكمة، فالحكم مباح التعليم للناس عامة بل واجب أن يتعلم كل امرئ من الأحكام ما يخصه، وأن ينتدب طائفة لعلم ما يعم جميع الناس {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين} [التوبة: 122] والحكمة التي هي العلم بما لأجله وجب الحكم من مشروطه التعليم بالتزكية {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} [الجمعة: 2] فما يعلمهم الحكمة إلا بعد التزكية فمن تزكى فهو من أهلها ومن يترك فليس من أهلها، فالحكمة تحلي مرارة جهد العمل بالأحكام فييسر بها ما يعسر دونها، والحكم ضيق الأمر للنفس كما أن السجن ضيق الخلق للبدن، والحكمة تود محمل ضيق الحكم لأنها تخرج وتؤول إلى سعة الواسع، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم.

ولما لم يكن للخلق من العلم إلا بقدر ما يهبهم الله لم يكن لهم من الحكمة إلا مقدار ما يورثهم {ولقد آتينا لقمان الحكمة} [لقمان: 12] ولما كان إنما العلم عند الله كان إنما الحكمة حكمة الله وإنما الحكم حكم الله، فهو الحكيم الذي لا حكيم إلا هو– انتهى. وقد علم سر اتباع الأسماء الشريفة من غير عطف، وذاك أنه لما ابتدأ ب «هو» وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف إعلاماً بأنه لا شـــيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم المتعارف عند أهل اللغة، ولذلك جمع بعدها الأسماء إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصـــاف المنزلة في كتبه والمأخوذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه وليس شيء مما ذكر ههنا مضاداً في المعنى الظاهري للآخر كالأول والآخر حتى يظن لأجله نقص في المعنى بســبب ترك العطف، وأما ترتيبها هكذا فلأن كل اسم منها كما مضى شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه، وموضــع لما ألاح أنه من مضــمونه، وقد انعطف على افتتاحها وختامها وعانق ابتداؤها تمامها، ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد، فسبحان من أنزله برحمته رحمة للعباد، وهادياً إلى الصواب والسداد.